

الجواهر المكنونة في الشهادتين

إله إلا الله محمد رسول الله

**إعداد
د / جمال محمد سعيد**

**الناشر
مكتبة الإيمان
للمنصورة ت : ٢٥٧٨٨٢
أمام جامعة الأزهر**

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

مكتبة الإيمان

المنصورة ت : ٣٥٧٨٨٢

أمام جامعة الأزهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

رضى الله سبحانه لأمة محمد ﷺ بأن يكون دينهم الإسلام ، والإسلام هو الدين الخاتم المتمم لجميع الرسائل السماوية السابقة ؛ ولهذا الدين أركان ودعائم يقوم بها العبد حتى يكون مثلاً يُحتذى به غيره .

الركن (لغة) هو الجانب الأقوى ، وهو بحسب ما يطلق عليه ركن البناء ، وركن القوم ، ونحو ذلك . ومن الأركان ما لا يتم البناء إلا به ، ومنها ما لا يقوم بالكلية إلا به وإنما قيل لهذه الأمور الخمسة أركان ودعائم لقوله ﷺ : " بنى الإسلام على خمس " ، فشبهه بالبنيان المركب على خمس دعائم ^(١) .

وأركان الإسلام الخمس كما ذكرها النبي ﷺ في قوله : " بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً " ^(٢) .

هذه الأركان منها ما هو قولى ويلفظ به كشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ومنها ما هو بدنى كالصلاة والصيام ، ومنها ما هو مالى كالزكاة ، ومنها ما هو مالى وبدنى معاً كالحج ، وما يهمننا فى هذه الأركان هو الركن الأول وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ وما يتعلق بهذه الأمور من جواهر عقائدية مكنونة داخلها وقف عليها العبد لأدى واجباتها

(١) أبو عاصم هشام بن عبد القادر بن محمد / مختصر معارج القبول لأل حكيم ط دار الصفوة ١٧٠ . رواه البخارى فى أول كتاب الإيمان وانظر فتح البارى ج ١ ص ٦٤ ورواه مسلم فى كتاب الإيمان باب أركان الإسلام ودعائمه .
(٢) وانظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ١٧٧ .

كما ينبغي أن يكون حتى ينال مرضات الله ورسوله محمد ﷺ ، والنطق بالشهادتين ركن أساسي من أركان هذا الدين ولا ينبغي للعبد في الدخول في هذا الدين إلا بهما ولا يمكننا الحكم على خروجه من هذا الدين إلا بمناقضته إياهما ، فالشهادة الأولى تحقيق لوحدة الله ونفى كل ما دون الله من آلهة ، والذي يرشد إلى هذا الطريق المستقيم هو إقرار العبد وشهادته بأن محمداً ﷺ رسول مبعوث من قبل الله وهادي إلى هذا الصراط المستقيم . قال أبو عاصم : هذا الركن هو أصل الأركان الباقية ولا يدخل العبد في شيء من الشريعة إلا به ولا يخرج من الدين إلا بمناقضتها ، وهذا لم يدع الرسول ﷺ إلى شيء قبلها ولم يقبل الله تعالى ولا رسوله ﷺ من أمر شيئاً دونها ، فالشهادة الأولى لا إله إلا الله توحيد المعبود والذي ما خلق الخلق إلا ليعبدون ، أي ليوحدونه وحده لا شريك له ، وفي الثانية محمد رسول الله ﷺ توحيد الطريق الذي لا يصل إلى الله تعالى إلا منه ، ولا يقبل ديناً مما ابتغى غيره ورغب عنه^(١) هذه هي أركان الإسلام الخمسة ، أما الإيمان فله ستة أركان كما ذكر في حديث جبريل عليه السلام للنبي ﷺ فعدد له الإيمان يكون لسته الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقضاء والقدر ، هذا حديث مشهور له عدة روايات ، فالركن الأول وهو الإيمان بالله عز وجل بالوحيته وربوبيته وصفاته كلها التي وصف به نفسه في كتابه الكريم أو على لسان رسوله محمد ﷺ دون تعطيل أو تكليف أو تمثيل أو تحريف وبكل ما يليق بجلال الله سبحانه وتعالى وكماله مما ذكر وافياً في كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ ، فالشهادة بلا إله إلا الله يجب أن تكون مستحضرة لهذه المعاني قال حافظ آل حكي : الإيمان ستة أركان فسر به بها النبي ﷺ في حديث جبريل وغيره بلا نكران للنقل ولا تكذيب للخبر

(١) أبو عاصم / مختصر معارج القبول ص ١٧١ .

ولاشك في الاعتقاد ولا استكبار عن الانقياد . الأول منها (إيماننا بالله) بإلهيته وربوبيته لا شريك له في الملك ولا منازع له فيه ولا إله غيره ولا رب سواه ، واحد أحد فرد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا يشرك في حكمه أحداً ولا ضد له ولا ند له ولم يكن له كفواً أحد ، (ذي الجلال) ذي العظمة والكبرياء الذي هو أهل أن يجل فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، ويوحد فلا يشرك معه غيره . ولا يوالى إلا هو : ﴿ قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء . قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض . أفغير الله أبغى حكما . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ .

والإيمان بـ (ما له) تعالى (من صفة الكمال) مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العلى وإقرارها كما جاءت بلا تكيف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل وأن كل ما سمي الله تعالى ووصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ الكل حق على حقيقته على ما أراد الله وأراد رسوله وعلى ما يليق بجلاله وعظمته ^(١) ، وهذا الإيمان اللائق بجلال الله وكماله وما ينبغي أن يتحقق به ألوهيته وربوبيته وصفاته الكاملة تأتي الشهادة ؛ شهادة العبد بنفى الأنداد والآلهة التي لا تستحق ذلك وإثبات أن المعبود بحق هو الله سبحانه وتعالى ، وأن الهادى لهذا المعبود هو ما أراده الله سبحانه وتعالى بأن يكون رسولا ونبياً وهادياً ومبشراً ونذيراً ، وبذلك يتحقق وتكتمل شهادة لا إله إلا الله بشهادة محمد رسول الله ﷺ .

(١) حافظ بن أحمد حكيم / معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد
اختصره أبو عاصم بن عبد القادر محمد آل عقده طبعة دار الفتح الإسلامي ج ٢ ص ٧٦ .

وفى هذا البحث الخاص بالشهادتين نحب أن نلقى الضوء على جواهر عقائدية تخفى على كثيرين، هذه الجواهر العقائدية المكنونة متعلقة بشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله منبع هاتين الشهادتين من الإيمان والإسلام ، ودليل الشهادتين من القرآن والسنة المطهرة وما فى الشهادتين من أركان ومعانٍ ؛ وما ينبغى من توافر شروط الشهادتين إلى جانب ارتباط شهادة العبد بأن محمداً رسول الله ﷺ وشهادة أن لا إله إلا الله وأن الله وحده لا شريك له إلى جانب الإشارة إلى أمر الله فى العمل بالشهادتين وحكم نطق العبد بالشهادتين إلى جانب بيان فضلها والدعاء إليها وما يترتب عليها من وجوب الحكم بالتوحيد الذى هو منقسم إلى توحيد الألوهية والربوبية والصفات ، والذى كان هو القاسم المشترك والدين الواحد من توحيد الله عبر الأزمنة السالفة طبقاً لما جاء به بكل الأنبياء والمرسلين ، أما إيمان المشركين والكفار بإيمان ربوبية يفتقد لإيمان الألوهية ، ونحن نعلم أن المقبول عند الله سبحانه وتعالى هو توحيد الألوهية وهذا ما سنوضحه بالتفصيل فى مكانه بإذن الله تعالى من خلال إلقاء الضوء على تلك الجواهر العقائدية الكامنة وراء شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ والله الموفق إلى سواء السبيل .

الجوهرة الأولى

أصلُ الشهادتين

من الإسلام والإيمان

الجوهرة الأولى

أصل الشهادتين من الإسلام والإيمان

ذكرت السنة المطهرة عدة روايات عن الإسلام والإيمان ، وذكرت السنة المطهرة أربع روايات عن أركان الإسلام ، وثلاث روايات عن أركان الإيمان من حديث جبريل جاء يعلمكم أمور دينكم ، معنى الروايات الأربع الخاصة بالإسلام عبر صلوات الله عليه عن الركن الأول الخاص بالشهادتين والمتضمن الإيمان بالله ورسوله أن يوحد الله ولا يشرك معه أحداً ، فمعنى هذا أنه يعبد الله ويكفر بما دونه ، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وتحقيق شهادة لا إله إلا الله يستلزم الشهادة بأن محمداً رسول الله ، وهذا هو الركن الأول في الإسلام والأساس لما بعده من عبادات ، وهذه الروايات الأربع الخاصة بالإسلام كما أوردتها السنة المطهرة على النحو الآتي :

الرواية الأولى : حدثنا عبيد الله بن معاذ ، حدثنا أبي عاصم وهو ابن محمد ابن زيد بن عبد الله بن عمرو عن أبيه قال : قال عبد الله : قال رسول الله ﷺ : " بُنِيَ الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان " .

الرواية الثانية : عن ابن عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول : " بُنِيَ الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج البيت " .

الرواية الثالثة : حدثنا سهل بن عثمان العسكري ، حدثنا يحيى بن زكريا ، حدثنا سعد بن طارق ، قال : حدثني سعد بن عبيدة السلمى . عن ابن عمر أن

رسول الله ﷺ قال : " بُنِيَ الإسلام على خمس : أن يعبد الله ويكفر بما دونه، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان " .

الرواية الرابعة : حدثنا محمد بن عبد الله بن محمد الهمداني ، حدثنا أبو خالد يعني سليمان بن حبان الأحمر ، عن أبي مالك الأشجعي ، عن سعد بن عبيدة ، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : " بُنِيَ الإسلام على خمسة : على أن يوحد الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان والحج؛ قال رجل : الحج وصيام رمضان قال : لا صيام رمضان والحج؛ هكذا سمعته من رسول الله ﷺ .

أما روايات حديث جبريل والمتضمنة السؤال عن الإسلام ثم السؤال عن الإيمان ، وكلا السؤالين إجابتهما متضمنة النطق الظاهري باللسان لشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله وهذا هو أول أركان الإسلام .

والإيمان بالله هو أول أركان الإيمان من تسليم القلب لهذا الإله وقبول شرعه ومحبه والخوف منه والرجاء فيه سبحانه وتعالى ، والولاء إلى أهل الله عز وجل والبراء من أعدائه فهذا كله يشكل الإيمان بالله وهذه الروايات على النحو الآتي :

وهذه الروايات الثلاث المتضمنة الحديث عن الإسلام والإيمان والإحسان^(١).
الرواية الأولى : ما رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس ، إذ أتاه رجل يمشي فقال : " يا رسول الله ما الإيمان؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، ورسوله ، وكتبه ، وتؤمن بالبعث الآخر ، قال : يا رسول الله ما الإسلام؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، قال :

(١) رواها مسلم : راجع شرح النووي ج ١ ص ١٧٦ ص ١٧٧ باب أركان الإسلام ودعائمه.

يا رسول الله ما الإحسان ؟ قال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . . . إلى أن قال : هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم " .

الرواية الثانية : ما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " سلوني فهابوا أن يسألوه ، فجاء رجل فجلس عند ركبتيه فقال : يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال : لا تشرك بالله شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، قال : صدقت . قال : يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، وتؤمن بالبعث ، وتؤمن بالقدر كله قال : صدقت . قال : يا رسول الله ما الإحسان ؟ قال : أن تخشى الله كأنك تراه فإنه إن لم تكن تراه فإنه يراك قال : صدقت . قال : يا رسول الله . متى تقوم الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل وسأحدثك عن أشراتها . . . إلى أن قال : هذا جبريل أراد أن تعلموا إذ لم تسألوا) .

الرواية الثالثة : ما رواه مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب قال : " بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه قال : يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال : صدقت . قال : فمجبنا له يسأله ويصدقني إلى أن قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم " (١) .

ومن هذه النصوص النبوية نجد أن الإيمان بأركانه الستة ، والإسلام بأركانه الخمسة قد دلّ بأول ركنيهما على الإيمان بالله ﷻ كغيب مطلق يجب الإيمان به وإن لم نره ، إلا أننا نشعر به ونحس به من آياته الكونية وآياته في الأنفس ،

(١) رواه مسلم بشرح النووي - ١ ص ١٨٨ م .

وهذه وتلك قرآن مفتوح يمكن لكل متبصر وعاقل أن يجد الله ﷻ وراءها فيتيقن قلبه ويمتأ بالرضا عن هذا الإله ﷻ الحق ويسارع اللسان بالتعبير عن ذلك بالنطق بالشهادتين ، ليعلم أن معبوده الله الواحد الأحد . وأن لا إله بحق دونه فينفى كل الأرباب والآلهة ويقصر تلفظه وشهادته بلا إله إلا الله ثم يشهد أن هذا الإله الواحد الأحد قد اجتبى واصطفى أكرم ولد آدم وهو محمد بن عبد الله ﷺ الصادق الأمين ، اختاره رسولاً ونبيّاً للعالمين ، فينطق اللسان بكلمة الشهادة ، وأن محمداً رسول الله وبذلك تكتمل الشهادة الحقّة بلا إله إلا الله محمد رسول الله ﷻ التي منبعها الإيمان القلبى وما يعلن عنه بالإسلام الظاهرى ، وهو النطق باللسان ، ولم يبق على العبد سوى الالتزام بما شهد به من واجبات تلك الشهادة وما يترتب عليها من أعمال أمرنا بها الله ﷻ ، سواء أمر ينفذ ، أو نهى يبتعد عنه ، حتى نكون ملتزمين بما تنطق به ألسنتنا من شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷻ ليتحقق صدق إسلامنا وصحة إيماننا .

* * * * *

الجوهرة الثانية

أدلة شهادة لا إله إلا الله

في الدين الإسلامي

الجوهرة الثانية

أدلة شهادة لا إله إلا الله في الدين الإسلامي

لا يمكن الحكم على إنسان ارتضى بأن يكون الإسلام له ديناً إلا بعد سماعه للشهادتين ، فالنطق بها يعنى الإعلان فى الدخول فى هذا الدين ولا يدخل العبد فى الدين الإسلامى إلا بهما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [النور : ٦٢].

وهناك أدلة ساطعة جلية من القرآن والسنة على شهادة لا إله إلا الله ، وأنه هو المعبود بحق ، تلك الشهادة لم يكن المخلوق له السبق بنطقها بل إن الله سبحانه وتعالى قد شهد بها قبلاً قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[آل عمران : ١٨] .

ومن أصدق من الله شهادة أن لا إله بحق سواه ، وقد كرم سبحانه وتعالى العلماء من بنى آدم مع الملائكة الذين شهدوا بذلك أن لا معبود بحق سوى الله العزيز الحكيم .

قال ابن كثير : (شهد تعالى وكفى به شهيدا وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم وأصدق القائلين : ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى المنفرد بالالوهية لجميع الخلائق ، وأن الجميع عبيده وخلقه وفقراء إليه ، وهو الغنى عما سواه كما قال تعالى : ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾ الآية ثم قرن شهادة ملائكته وأولى العلم بشهادته فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء فى هذا المقام (قائما بالقسط) منصوب على الحال وهو فى جميع الأحوال كذلك (لا إله إلا هو) تأكيد لما سبق (العزيز الحكيم) العزيز

الذى لا يرام جنباه عظمة وكبرياء ، والحكيم فى أقواله وأفعاله و قدره وشرعه .
وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بقرية بن الوليد ، حدثنى جبير
ابن عمر والقرشى ، حدثنا أبو سعيد الأنصارى ، عن أبى يحيى بن آل الزبير بن
العوام ، عن الزبير بن العوام ، قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم وهو
يقرأ هذه الآية : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا
بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] وأنا على ذلك من
الشاهدين يا رب . وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر فقال : حدثنا على بن
حسين ، حدثنا محمد بن المتكل العسقلانى ، حدثنا عمر بن حفص بن ثابت أبو
سعيد الأنصارى ، حدثنا عبد الملك بن حوى بن عبادة بن عبد الله بن الزبير ،
عن أبيه ، عن جده ، عن الزبير ، قال : سمعت رسول الله ﷺ حين قرأ هذه
الآية : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ قال : أنا أشهد أنه رب . وقال
الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى المعجم الكبير : حدثنا عبدان بن أحمد ، وعلى بن
سعيد الرازى ، قالا : حدثنا عمار بن عمر المختار ، حدثنى أبى ، حدثنى غال
القطان ، قال : أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قربا من الأعمش ، فلما كانت ليلة
أردت أن أنحدر قام فتهجد من الليل فقرأ بهذه الآية : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الَّذِينَ
عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ثم قال الأعمش : وأنا أشهد بما شهد الله به واستودع الله هذه
الشهادة وهى لى عند الله ودیعة ^(١) .

ولا ننسى أن النبى ﷺ قد مكث بمكة ثلاثة عشر عامًا بعد نزول الوحي عليه
وهو يدعو قومه إلى قول لا إله إلا الله فقط دون غيرها ، ومنها ثلاث سنين سرية
والباقى جهرية ، فلم يخرج منه إلا بمعاداته ومحاربتة هو وكل من آمن معه من
الضعفاء والفقراء وخصوصا العبيد . أما بعد هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة فقد

(١) ابن كثير تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٣٥٤ .

مكث عشر سنين يدعو إليها وإلى حقيقة أنه مبعوث ورسول من رب العالمين وهذا ما أكدته مرارا لسكان المدينة ، خصوصا أهل الكتاب الذين أنكروا واستكثروا أن يكون الرسول مبعوثاً من العرب ، فذهب أهل الكتاب يعلنون العداء نحوه ﷺ إما علنا وإما خفية بالدسائس والمؤامرات والمعارك الكلامية تارة والمعارك المسلحة تارة أخرى ، وهو يؤكد لهم ولغيرهم أن لا إله إلا الله وأنه عبد الله ورسوله ﷺ.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى : أصل الإسلام وقاعدته أمران : الأول : الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والتحريض على ذلك والمبالاة فيه وتكفير من تركه قلت : وأدلة هذا في القرآن أكثر من أن تحصر كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٦٤] أمر الله تعالى نبيه أن يدعو أهل الكتاب إلى معنى لا إله إلا الله دعا إليه العرب وغيرهم والكلمة هي : لا إله إلا الله ففسرها بقوله أن لا نعبد إلا الله فقوله : (أن لا نعبد) فيه معنى لا إله ، وهو نفى العبادة عما سوى الله وقوله : (إلا الله) هو المستثنى في كلمة الإخلاص ، فأمره تعالى أن يدعوهم إلى قصر العبادة عليه وحده ونفيها عن سواه ، ومثل هذه الآية كثير تبين أن الألوهية هي : العبادة وأنها لا يصلح منها شيء لغير الله كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٢٣] معنى قضى أمر ووصى قولان ومعناهما واحد وقوله : أن لا تعبدوا فيه معنى (لا إله) وقوله : إلا إياه فيه معنى (إلا الله) وهذا هو توحيد العبادة وهو دعوة الرسل إذ قالوا لقومهم : أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، فلا بد من نفى الشرك في العبادة رأسا والبراءة منه وممن فعله كما قال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [الزخرف : ٢٦، ٢٧] فلا بد من البراءة من عبادة ما

كان يعبد من دون الله وقال عنه ﷺ: ﴿وَأَعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم : ٤٨] فيجب اعتزال الشرك وأهله بالبراءة منهما كما صرح به في قوله تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَخَذَهُ﴾ [المتحنة : ٤] والذين معه هم الرسل كما ذكره ابن جرير . وهذه الآية تتضمن جميع ما ذكره شيخنا رحمه الله من التحريض على التوحيد ونفى الشرك والموالات لأهل التوحيد ، وتكفير من تركه بفعل الشرك المنافي له ، فإن من فعل الشرك فقد ترك التوحيد ، فإنهما ضدان لا يجتمعان ، فمتى وجد الشرك انتفى التوحيد وقد قال تعالى في حق من أشرك : ﴿وجعل الله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار﴾ فكفره الله تعالى باتخاذ الأنداد وهم الشركاء في العبادة، وأمثلة هذه الآيات كثيرة فلا يكون المرء موحداً إلا بنفى الشرك والبراءة منه وتكفير من فعله (١).

وهناك آيات دالة على شهادة لا إله إلا الله من القرآن الكريم مثل قوله تعالى للإخبار عن الله وهو أصدق القائلين : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾

[محمد : ١٩] .

قال محمد فريد وجدى : فاعلم يا محمد أنه لا إله إلا الله واستغفر للمؤمنين والمؤمنات والله يعلم أماكن انتقالهم ومحل إقامتهم (٢) .

برغم أن ظاهر الآية يوحى بأمر العلم إلا أن حقيقة الآية تعنى العلم لا على سبيل الأمر لأنه عطف الاستغفار على العلم قال ابن كثير : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله ولا يتأتى كونه أمراً بعلم ذلك ولهذا عطف

(١) ابن تيمية / مجموعة التوحيد ص ٢٨ و ٢٩ ط / دار الفكر العربى .

(٢) محمد فريد وجدى المصحف المفسر ط الشعب ص ٧٦٥ .

عليه بقوله ﷺ : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد : ١٩] وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول : " اللهم اغفر خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني " ، " اللهم اغفر لي هزلي وما أخرت ، وما أسررت ، وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت إلهي لا إله إلا أنت " وفي الصحيح أنه قال : " يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة " .

وهذه الآيات القرآنية ليست أدلة قائمة بذاتها على إثبات الوجدانية لله تعالى ، بمعنى أنها تتجاهل استدلال العقل على هذه الوجدانية بل إن هذه الآيات الكريمة وراءها أدلة عقلية دالة على وحدانية الله تعالى ، فهذه الآيات كاشفة وموضحة ومرشدة للأدلة العقلية التي تؤكد أن هذا الكون لا يمكن أن يكون له أكثر من إله بل هو إله واحد لا شريك له ، وهذه الآيات السابقة الذكر قد نفت عن الله تعالى أموراً لا تليق بذاته المقدسة ، وهي : الكثرة ، والتعدد ، والقلّة ، والنقص ، والعلة ، والمعلومية ، والشبيه ، والنظير ، وبذلك يكون بجانبه أمور لا تليق بالله فالآيات الإخبارية مثل قول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ومثل قوله تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة : ١٦٣] ومثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص] فهذه السورة قد نفت عن الله تعالى أموراً لا تليق بذاته المقدسة وهي ثمانية :

- ١- نفى الكثرة والتعدد بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .
- ٢- نفى القلة والنقص بقوله : الله الصمد ، والصمد هو الذي يقصّد في الحوائج ويحتاج إليه .
- ٣- نفى العلة والمعلولية بقوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ بمعنى أن لا يكون تعالى علة لغيره وأن لا يكون معلولاً لغيره .

٤- نفى الشبيه والنظير ومافى حكمهما من المثل والمساوى والمضاهى والمحاكى (١) بقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ .

فهذه أدلة المتكلمين على الوجدانية ونحن نرى أنهم ينفون عن الله ما لا يليق به من قلة ونقص وكثرة وتعدد وشبيه ونظير وعلة ومعلولية ونحن نرى أن فى دليلهم تركيز على نفى النقائص دون إشارة إلى إثبات الكمال والصفات التى نصّ عليها القرآن الكريم .

والنفى والإثبات ضرورى فى رسوخ الإيمان بتوحيد الصفات كما ذهب لذلك سلفنا الصالح وكما سنوضحه بمكانه إن شاء الله ، وقد أشار النص القرآنى من نفى وإثبات واضحين فى قول الله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] فى هذه الآية نفى كل ناقصة من تشبيهه وتجسيد دون تعطيل ، إلى جانب إثبات بعض الصفات التوقيفية من الله عز وجل ، وبهذا تكتمل صورة الإيمان بالصفات من نفى وثابت فى آن واحد .

الدليل العقلى على الوجدانية

والآيات المرشدة إلى الدليل العقلى لإثبات الوجدانية لله تعالى مثل قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء : ٢٢] ، فهذه الآية مرشدة إلى وجه الاستدلال لإبطال وجود إلهين كاملى القدرة والإرادة ، ولكن عدم وجود شيء من العالم باطل؛ لأنّ العالم موجود بالمشاهدة .

والواقع بالفعل ، فما أدى إليه وهو التعدد للألوهة باطل . وإذا بطل التعدد ثبتت الوجدانية وهو المطلوب (٢) ، وهذه الآية ترشد العقل إلى وجود إله واحد

(١) الشيخ عبد الله الشرقاوى : شرح الهدى على السنوسية ص ٥٩ ونظر حشوية العلامة لصلوى .

(٢) على شرح الخريدة مطبعة حجازى ١٢٢٨ ص ٦٠ .

لهذا الكون الذى نراه بأعيننا وجميع حواسنا من خلال آثاره من آيات كونية ، وآيات النفس واضحة للمتبصرين ، وأن العقل يفترض فروضاً من خلال آية سورة الأنبياء : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] .

من عدم تكون السماوات والأرض وهذا الفرض باطل لمشاهدة الحواس بتكونهما بالفعل أو أن يفترض العقل زوالهما أو فسادهما وخروجهما من نظامهما هذا على فرض تنازع الإلهيين لكن المشاهدة تؤكد دوام الاستقرار وعدم الفساد إذن يلزم على ذلك وجود إله واحد لا شريك له مطلق القدرة والعلم والحكمة .

قال سعد الدين التفتازانى فى المقاصد : النص يحتمل معنيين :

الأول : عدم تكون السماء والأرض ، والثانى : خروجهما عما هما عليه من النظام ، فإن كان المراد المعنى الأول كان تقرير الدليل فى الآية هكذا لو تعدد الإله لم تتكون السماء والأرض ؛ لكان التالى معاً - أما الملازمة فإن تكونهما إما بمجموع القدرتين أو بكل منهما أو بأحدهما والكل باطل .

أما الأول : فلأن شأن الإله كمال القدرة فلا يشركه غيره فى مقدور ما .

وأما الثانى : فلا امتناع اجتماع مستقلتين على معلول واحد فإنه إذا وجد بأحدهما فكيف يوجد بالآخر ؟ بل ذلك تحصيل حاصل وهو محال .

وأما الثالث : فلأنه يلزم الترجيح بلا مرجح لأنه المقتضى للقادرية ذات القادر ، وللمقدورية إمكان فنسبة الممكنات إلى الإلهيين المفروضين على سواء . وإذا كان المراد المعنى الثانى كان تقرير الدليل فى الآية هكذا : لو تعدد الإله لأمكن بينهما التنازع والتغالب الذى باعتباره صار كشخص واحد ويختل النظام الذى به بقاء الأنواع حفظ النوع وترتب الآثار (العلل والمعلولات) (١) .

(١) سعد الدين التفتازانى/المقاصد ص ٣٥ الجزء الرابع مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ١٩٨٩ .

وهذا ما ذكره السعد في المقاصد من حجة إقناعية عقلية موجهة لأي خصم ينكر وحدانية الله ، ويقول بالتعدد والتلازم الذي ذكره غير عقلى لأنه لو كان عقلى للزم حدوثه بالفعل .

فالآية الكريمة تدل على إبطال وجود أكثر من إله لكل واحد منهم صفات الكمال من القدرة والإرادة والعلم والتي يستبعد العقل من اجتماعهم وتوابعهم وإلا ترتب على ذلك الفساد .

ولكى نوضح هذه المسائل نقول : وهذا العالم إما أن يكون له إله واحد ، وإما أن يكون أكثر من إله ، فإن كان الأول فهو المطلوب وهو الثابت حقيقة وإن كان الثاني على سبيل الفرض فهذه الآلهة وأقلها اثنين إما أن يتفقا وإما أن يختلفا وهذا يترتب عليه عدة نقاط منها :

أولاً : إذا اتفق الإلهين على إيجاد عالم فيترتب على ذلك أن يكون هناك مؤثرين على أثر واحد كفاعلين على فعل واحد وهذا مستبعد عقلاً .

ثانياً : إن قيام كل إله بصنع هذا العالم باعتماده على الثاني فهذا يترتب عليه الاحتياج لعدم استقلالية كل إله بصنيعه وفعله وهذا من لوازم الحدوث والإله ليس حادثاً بل هو قديم .

ثالثاً : إذا افترضنا أن الإلهين قد اتفقا على تقسيم العمل بينهما بمعنى أن كل واحد منهما يقوم بعمل مخالف لفعل الآخر ، وفعل كل منهما يكون مكملين لبعضهما البعض وهذا ترتب عليه نقصاً لكل منهما لوجود الاحتياج وعدم الاستقلالية بالفعل أو هذه الحالة لا يستبعدا العقل تماماً إذ إن العقل لا يتصور في الإله إلا كل كمال يليق به .

رابعاً : إذا افترضنا أن أحد الإلهين قد صنع هذا العالم كله مرة واحدة دون ترتيب ، ثم جاء الثاني وقام بترتيب ما صنعه الإله الأول فيكون الإله الثاني مجرد فاعل لأشياء قد خلقها غيره ، ويكون محصلاً لأشياء قد حصلت بفعل ، هذه الحالة

تسمى تحصيل حاصل وعلى ذلك تكون الألوهية قد اعتراها النقص وعدم الكمال .
أما الأول خلق العالم بلا ترتيب ، والثاني رتب هذا العالم كتحصيل حاصل
وكلا الفعلين لا يليق بإله يتصور العقل فيه الكمال وعدم النقص .

خامساً : وإذا افترض العقل جدلاً بأن الإلهين قد اتفقا على عدم خلق هذا
العالم ، فهذا أمر مستحيل لوجود هذا العالم بالفعل وما فيه من نظام دقيق وآيات
في الأنفس والآفاق تدل على وجود إله حكيم لطيف خبير وصدق الله القائل :
﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذَاهُ لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ
بَغْضِهِمْ عَلَى بَغْضِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩١] .

سادساً : إن اختلفا بأن أراد أحدهما إيجاد العالم والآخر عدم إيجاداه .
(وهذا نص دليل الاختلاف : وإن اختلفا بأن أراد أحدهما إيجاد العالم ،
والآخر عدم إيجاداه فيلزم " إذا نفذ مرادهما معاً لزم اجتماع الضدين (الإيجاد
والعدم) . أو أراد أحدهما حركة الجسم وأراد الآخر سكونه : فإن نفذ مرادهما معاً
في آن واحد لزم اجتماع الضدين (الحركة والسكون معاً في آن واحد) وهذا محال .
وإذا نفذ مراد أحدهما دون الآخر فيلزم عجزهما معاً ؛ لأنه ما يجوز على أحد
الأمرين المتساويين من كافة الوجوه يجوز على الآخر .

وإذا لم ينفذ مرادهما لزم خلو الجسم من الحركة أو السكون ، ولزم أيضاً
بالنسبة لإيجاد العالم وعدم إيجاداه الخلاء والفراغ للكون من الوجود ، وهذا
محال ، وهذا الدليل يسمى دليل التمانع لخلفة كل واحد منهما للآخر ومنعه وسد
الطريق ، أمام الآخر وإبطال وظيفته (١) .

ومن هذه الأدلة نخلص إلى أن إخبار الحق الحكيم سبحانه وتعالى بشهادة أن
لا إله إلا الله حقيقة يتصورها العقل ويسلم لها ، بل نقيضها ينفر منها العقل
ويترتب عليها استحالات ونواقص مستبعدة تماماً .

(١) شمس الدين الأصفهاني شرح مطلع الأنظار على طوابع الأتوار ص ١٦٦ سنة ١٣٣٣ هجرية .

الجوهرة الثالثة

أدلة شهادة أن محمداً رسول الله

الجوهرة الثالثة

أدلة شهادة أن محمداً رسول الله

لكي يمكننا إثبات رسالة سيدنا محمد ﷺ فإن الأقلام تجف من كثرة الأدلة على إثبات ذلك مهما أتينا من أقلام ، ولكننا نأتي ببعض الأدلة التي تبرهن حقيقة سيدنا محمد وأنه نبي مبعوث من قبل الله ﷻ ، وهذه الأدلة قلّة من كثرة وهي على النحو الآتي :

أولاً : إن أي نبي يدعى النبوة لنفسه وأنه رسول من قبل رب العالمين لابد وأن يؤيد من قبل الله ﷻ بما يصدق دعواه من معجزات معنوية وحسية ، وقد مرّ الله ﷻ على نبيه ﷺ بكثير من المعجزات على رأسها وفي مقدماتها القرآن الكريم ، المعجزة الخالدة التي تحدى بها النبي ﷺ أمة العرب كلها رغم ما بهم من فصاحة وبلاغة ، فهم أهل كلام من شعر ونثر ، ونحن نتذكر ما قاموا به من مباہتهم لهذا الكلام من شعر في جوف الكعبة ، وهي المعلقة السبع ، ولم يتحدّ النبي ﷺ بهذا القرآن العرب فحسب بل تحدى به العجم سواء فرس وروم أو حبشى أو أى ملة كائنة من كانت ، بل تحدى به الجن مع الإنس ، ولم يقتصر التحدى بالفصاحة والبلاغة وحسب بل بأمور عديدة أخرى ، منها عجز الإنس والجن على أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة فقط من مثله ، إلى جانب إخباره بالمغيبات في الزمن الماضي من الأمم الهالكة والأنبياء السالفة ، وإخباره بالغيب في المستقبل مثل هزيمة الروم وانتصارهم بعد حين ، إلى جانب عدم تناقضه بعضه لبعض وأكبر معجزة في رأينا خاصة بهذا القرآن الكريم هي نزول هذا الكتاب على رجل أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة مثل غيره من أهل الكتاب ، والنبي ﷺ بهذا الكتاب الكريم قد أثار عقولاً وأحى أمواتاً وأنشأ جيوشاً

وكون دوله مما ترتب على ذلك إنشاء جامعات وكليات وعلماء أفذاذ ينهلون من هذا الكتاب الكريم ، إلى جانب تأييد الله ﷻ إلى حبيبه المصطفى ﷺ بمعجزات حسية نقلت إلينا بطريق التواتر التي يقف العقل أمام تلك الخوارق بالاتبهار والتسليم بصدق النبي ﷺ عن إخباره عن رب العزة ، وأنه رسول الله حقاً وصدقاً والكتب مليئة بهذه المعجزات الحسية .

ثانياً : مما يؤكد صدق وصحة رسالة سيدنا محمد ﷺ أيضاً هو ثباته على هذا الأمر وعلى هذا الادعاء بأنه رسول الله ثلاثة وعشرون عاماً وهو يحارب ويعانى الأمرين من أعدائه وخصومه حتى من أقرب أقربائه إلى جانب ثباته أيضاً على هذا الأمر رغم المغريات التي قدمت له من جمع أموال العرب إليه أو تسييده بجعله ملكاً للعرب ، أو الإتيان بأعظم الأطباء ليعالجوه مما هو عليه على حد زعمهم بأنه مريض ، رغم هذا كله كان ثابتاً كثبوت الجبل ورسوخه ودون ترحزح ، لدرجة أنه قال ﷺ : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه . فلم يجد أعداؤه مع شدة عداوتهم وحرصهم على الطعن فيه مطعناً ولا إلى القدح فيه سيلاً فإن العقل يجزم باتباع اجتماع هذه الأمور في غير الأنبياء ، وأن يجمع الله هذه الكمالات في حق من يعلم أنه يفترى عليه ثم يمهل ثلاثاً وعشرين سنة، ثم يظهر دينه على سائر الأديان وينصره على أعدائه ويجنى آثاره بعد موته إلى يوم القيامة .

ثالثاً : هناك دليل على رسالة سيدنا محمد ﷺ - وإن بدا في ظاهره غريباً إلا أنه يعبر عن حقيقة واقعية تخدم النبي ﷺ - هذا الدليل يتمثل في زواجه بأكثر من أربع نسوة لدرجة أنه اجتمع تسع نسوة على نتمته في زمن واحد ، وهذه الكثرة من النساء في رأى أنها خدمت النبي ﷺ وخدمت أمته ، وهي حجة له لا عليه ،

إذ إن هؤلاء النسوة كن في بيوت النبي ﷺ وكالات الأنباء الاستخبارية التي تنبئ العالم كله بما يحدث لهذا الرجل وما يحدث في الخفاء بعيداً عن أعين الناس وهو يدعى النبوة والرسالة - في الخارج - والفضيلة فهل يلتزم بما يقول داخل مخدعه ؟ بالتأكيد كان هؤلاء النسوة يخبرن عن كل أسرار النبي ﷺ من كلامه ، وقيامه ، وجلسه ، ونومه ، وأكله وشربه ، حتى علاقته بنسائه حين الجماع ، هذه الأحوال كانت تخرج من الستر ومن الخصوصية الشخصية إلى العالم المحيط به ﷺ ، أزواجه رضى الله عنهن اللاتي شاء الله أن يكن في بيت النبي بمثابة وكلاء أنباء ينقلن كل صغيرة وكبيرة إلى العالم كله ، إن هذا الرجل ﷺ سريره مثل علانيته . ونذكر قوله ﷺ لأصحابه وللمسلمين من بعدهم أن نأخذ نصف ديننا عن هذه الحميراء وهي إحدى أزواجه السيدة (عائشة بنت أبي بكر رضى الله عنها) .

* * * *

الجوهرة الرابعة

الشهادتان من القرآن الكريم

الجوهرة الرابعة

الشهادتان من القرآن الكريم

ورد بالقرآن الكريم كثير من الآيات التي تدل صراحة بشهادة لا إله إلا الله، وهذه الآيات نوردّها متتابعة حتى يستأنس بها القارئ لتكون له نوراً وزخراً في الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[آل عمران : ٦٢] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

[الصافات : ٣٥] .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

[ص : ٦٥] .

قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُوا لِذَنْبِكُمْ ﴾ [محمد : ١٩] .

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾

[النساء : ٨٧] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ [النساء : ١٧١] .

قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [المائدة : ٧٣] .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بِرِيبٍ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ١٩] .

قال تعالى : ﴿ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ بِأَنبِئِكُمْ بِهِ ﴾ [الأنعام : ٤٦] .

قال تعالى : ﴿ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾

[الأنعام : ١٠٢] .

قال تعالى: ﴿ اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

قال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾

[الحشر: ٢٢].

قال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ ﴾

[الحشر: ٢٣].

قال تعالى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾

[المزمل: ٩].

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التغابن: ١٣].

أما بالنسبة لشهادة أن محمداً رسول الله ، فقد وردت في كتاب الله العزيز في عدة آيات وهي على النحو الآتي :

قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾

[آل عمران: ١٤٤].

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ

النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

قال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

[الفتح: ٢٩].

قال تعالى: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦].

فهذه آيات واضحة تدل على نسبة الرسالة وحملها إلى النبي ﷺ من قبل الله ﷻ وبذلك ثبتت الشهادتان : شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله من خلال آيات القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

الجوهرةُ الخامسةُ

الشهادتان من السنة المطهرة

الجمهرة الخامسة

الشهادتان من السنة المطهرة

أخرجت لنا السنة المطهرة أحاديث نبوية عظيمة في شأن الشهادتين وقائلهما من نيله الثواب العظيم ، وسيوضح ذلك بالتفصيل إن شاء الله في فضل الشهادتين والنطق بهما ، لكن في هذا الموضع فيقتصر بنا المقام على ذكر بعض النصوص النبوية الشريفة من ورود الشهادتين في كثير من الأحاديث النبوية الشريفة وهي على النحو الآتي :-

- ١- روى البخارى ومسلم في صحيحهما عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير فى اليوم مائة مرة عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه " ^(١) .
- ٢- وعن ابن عباد بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من عمل " ^(٢) .

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الذكر والدعاء والاستغفار باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ج٤ ص ٢٠٧١ ط دار إحياء الكتب العربية (عيسى الحلبى) .
(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان باب الدليل على أن مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ج ١ ص ٥٧ رقم ٤٦ ط دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبى .

٣- عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ ومعاذ قال : " يا معاذ بن جبل ؛ قال : لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثا ، قال : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه على النار " ^(١) .

٤- روى البخاري ومسلم بسندهما عن أبي ذر قال : خرجت ليلة من الليالي فإذا رسول الله ﷺ يمشى وحده ليس معه إنسان قال : فظننت أنه يكره أن يمشى أحد . قال : فجعلت أمشى في ظل الفجر فالتفت فرأيت فقال : " من هذا ؟ قلت : أبا ذر جعلني الله فداك قال : يا أبا ذر تعال... إلى أن قال : ذاك الرجل جبريل عرض لي من جانب الحرة فقال : بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة " ^(٢) .

٥- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : رسول الله ﷺ : " لقد ظننت يا أبا هريرة أن يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه " ^(٣) .

٦- قال أبو ذر رضي الله عنه أتيت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض وهو نائم ثم أتيت وقد استيقظ فقال : " ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق قال : وإن زنى وإن سرق قلت : وإن زنى وإن سرق قال : وإن زنى وإن سرق رغم أنف أبي ذر " ^(٤) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العلم باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا ج ١ ص ٢٦٦ ط دار المعرفة .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة باب الترغيب في الصدقة ج ٢ ص ٦٩٨ رقم ٣٣ ط دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العلم باب الحرص على الحديث ج ١ ص ١٩٣ رقم ٩٩ ط دار المعرفة .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب الثياب البيض ج ١٠ ص ٢٨٣ رقم ٥٨٢٧ .

٧- رواه مسلم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه أن معاذاً قال : بعثني رسول الله ﷺ قال: " إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإن هم أطاعوا فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة " ^(١) .

٨- روى الإمام مسلم بسنده عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال : " إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل فإذا عرفوا الله ، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم... " ^(٢) .

٩- عن عثمان قال : قال رسول الله ﷺ : " من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة " ^(٣) .

١٠- وعن أبي مسعود رضی الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أسرى بي فقال : يا محمد أقرئ أمتك السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غرسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر " ^(٤) .

١١- روى الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " ما من عبد قال : لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة " قلت : وإن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ج ١ ص ٥٠ رقم ٢٩ ط دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد باب ما جاء في دعاء النبي أمنه إلى توحيد الله تبارك وتعالى ج ١٣ ص ٣٤٧ رقم ٧٣٧٢ ط دار المعرفة .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ج ١ ص ٥٥ ط دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي .

(٤) رواه الترمذي في سننه كتاب الدعوات باب ٥٩ ج ٥ ص ٥١٠ رقم ٣٤٦٢ ط إحياء التراث العربي .

زنى وإن سرق ، قال : وإن زنى وإن سرق . قلت : وإن زنى وإن سرق ثلاثاً . ثم قال فى الرابعة : رغم أنف أبى ذر (١) .

١٢- روى الإمام مسلم بصحيحه عن أبى ذر قال : كنت أمشى مع النبى ﷺ فى حرة المدينة عشاء ونحن ننظر إلى أحد ، فقال يا أباذر : " ما أحبُّ أحدًا ذاك عندى ذهبًا أمسى ثالثة وعندى منه دينارٌ إلا دينارًا أوصده - يعنى لدين - إلا أن أقول فى عابد الله هكذا وهكذا ٠٠ إلى أن قال : ذاك جبريل أتلقى فقال : من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة " (٢) .

١٣- وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " من قال لا إله إلا الله ومدها هدمت له أربعة آلاف ذنب من الكبائر " (٣) .

١٤- عن أم هانئ قالت : قال رسول الله ﷺ : " لا إله إلا الله لا يسبقها عمل ولا تترك ذنباً " (٤) . رواه البيهقى .

١٥- وروى شيخنا الشيخ السيد ابن إدريس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها كلمة لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق " (٥) .

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب اللباس باب للثياب البيض ج ١٠ ص ٢٨٣ وأخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ، ومن مات مشركًا دخل النار ج ١ ص ٩٥ رقم ١٥٤ وأخرجه أحمد فى مسنده ج ٥ ص ١٦٦ دار المكتب الإسلامى .

(٢) أخرجه مسلم كتاب الزكاة باب الترغيب فى الصدقة ج ٢ ص ٣٨٧ و ٦٨٨ رقم ٣٢ ط دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي .

(٣) ذكره لمتقى لهندي فى كثر العمل ج ١ ص ٦٠ وعزاه إلى ابن قنجر عن أنس ط مؤسس الرسالة .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى سننه كتاب الأنب باب فضل لا إله إلا الله ج ٢ ص ١٢٤٨ رقم ٣٧٩٧ ط دار إحياء التراث العربى .

(٥) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان ج ١ ص ٦٣ رقم ٥٨ ط دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي .

- ١٦- وعنه ﷺ أنه قال : " جددوا إيمانكم ، أكثروا من قول لا إله إلا الله ^(١) "
- ١٧- عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أن الله تعالى قال : " لا إله إلا الله حصني ، من قالها دخل حصني ، ومن دخل حصني أمن عذابي " .

ومن هذه النصوص النبوية الشريفة التي وردت في كتب الصحاح قد تبين أن الشهادة لها شأن عظيم عند الله لمن قالها خالصا من قلبه ، عاملا بها ، محافظا على تنفيذ شروطها كما سيأتي في موضعه إن شاء الله فإنه من قام بهذا كله أدخله الله جنته وضمن لنفسه شفاعة المصطفى ﷺ ، وأن هذه الشهادة كما تبين من الأحاديث النبوية أنها أول ركن من أركان الدين ، ومن آمن بها وسلم بحقيقتها ترتب على ذلك العبادات الشرعية ، والشاهد مما سبق ذكره من الأحاديث النبوية هو ورود الشهادة وفضلها ومكانتها وما يترتب عليها ، كل هذا وارد في السنة المطهرة وثابت في صحيحها مما يعضد ذكرها بنصوص القرآن الكريم كما سبق ذكر ذلك بالجوهرة السابقة .

* * * * *

(١) أخرجه أحمد في مسنده ج ٢ ص ٣٥٩ ط المكتب الإسلامي

الجوهرة السادسة

أركان شهادة «لا إله إلا الله»

ومعناها

الجوهرة السادسة

أركان شهادة لا إله إلا الله ومعناها

إن المسلمين لهم الأسوة الحسنة في رسولهم صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وإن المسلمين ومعهم الرسول ﷺ لهم الأسوة الحسنة في خليل الله إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَخَدَهُ ﴾ [المتحنة : ٤] .

وهذه الأسوة تتمثل في البراء من كل الآلهة وكل ما يعبد من دون الله والافتصار على عبادة الله الواحد الأحد الذي لا شريك له ، فالمسلم يشهد أن لا إله إلا هو قد برئ وعاد من كل الأوثان والأصنام والآلهة التي تعبد من دون الله ، فكفره بها مقدم على إعلانه بأن يعبد الله الواحد الأحد وبذلك تكتمل شهادة لا إله إلا الله وهي كلمة التوحيد التي لا يدخل أحد الجنة إلا بها وهي كلمة الإسلام ومفتاح الإيمان وبها فرق بين الحق والباطل وبين الأتقياء والسعداء ، وهي العمود الحامل للفرض والسنة ، ومن كان آخر اعتقاده بهذه الكلمة دخل الجنة بإذن الله ، وهي المنجية من عذاب القبر وظلمته وضغطته .

روح هذه الكلمة وسرها

إفراد الرب جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره : بالمحبة والإجلال ، والتعظيم ، والخوف والرجاء وتوابع ذلك : من التوكل والإنابة ، والرغبة والرهبة ، فلا يحب سواه وكل ما يحب غيره . فإنما

يحب تبعاً لمحبه وكونه وسيلة إلى زيادة محبه . ولا يخاف سواء ولا يرجى سواء ، ولا يتوكل إلا عليه ولا يرغب إلا إليه . ولا يرهب إلا منه . ولا يحلف إلا باسمه ، ولا ينذر إلا له ، ولا يتاب إلا إليه ، ولا يطاع إلا أمره ، ولا يسجد إلا له ، ولا يستغاث في الشدائد إلا به ولا يلتجأ إلا إليه ، ولا يذبح إلا له وباسمه ، وحتمه ذلك في حرف واحد وهو : أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة : فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، ولهذا حرم على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة ، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ [المعارج : ٣٣] فيكون قائماً بشهادته في ظاهره وباطنه في قلبه وقالبه ^(١) .

وتتمثل أركان شهادة لا إله إلا الله في أمرين أولهما النفي حيث نقول : (لا إله) أي يبطل كل أنواع الشرك ، ويكفر المرء بكل ما سوى الله من معبود رضى الكفر والجهلة والمشركين ، ثم يأتي الركن الثاني : وهو الإثبات وهو متمثل في قول المرء إلا الله ، أي هذا إثبات أن لا معبود إلا الله بحق وصدق مع وجوب القيام بواجبات هذه الشهادة فلا يكفي التلفظ بشهادة لا إله إلا الله بحسب ، ولا العلم بها وحسب ، فهذا لا يريده الله سبحانه وتعالى ، بل إن الله سبحانه وتعالى يريد توحيد ألوهية من إقامة ما تستلزمه شهادة أن لا إله إلا الله ، أما توحيد الربوبية فهو أمر مستبعد؛ لأن توحيد الربوبية هو توحيد إبليس فهم يعترفون أن لهم رباً لكن لا يلتزمون بأوامره ويجحدون كثيراً مما يريده الله منهم ، وهذا فرق شاسع بين موحد الربوبية ، حسب وموحد الربوبية والألوهية معاً .

قال الشيخ سليمان : قال المصنف رحمه الله في هذا الباب : إنه ليس اسماً لا معنى له أو قولاً لا حقيقة له كما يظنه الجاهلون ، الذين يظنون أن غاية

(١) شمس الدين ابن قيم الجوزية / المعارف السنوية ص ١٢ سنة ١٣٩١ هجرية .

التحقيق فيها هو النطق بكلمة الشهادة من غير اعتقاد القلب بشيء من المعاني ، والحاذاق منهم يظن أن معنى الإله هو الخالق المنفرد بالملك ، فتكون غاية معرفته هو الإقرار بتوحيد الربوبية ، وهذا ليس هو المراد بالتوحيد ، ولا هو أيضاً معنى لا إله إلا الله ، وإن كان لابد منه في التوحيد بل التوحيد اسم معنى عظيم وقول له معنى جليل هو أجل من جميع المعاني ، وحاصله هو البراءة من عبادة كل ما سوى الله ، والإقبال بالقلب والعبادة على الله وذلك معنى الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله هو معنى لا إله إلا الله ^(١) .

فالذي يتلفظ بقول لا إله إلا الله وهو يعلم حقيقتها ولا يلتزم بها فهو غير ناجح، بل إنه يُعد من المشركين الذين يقولون بتوحيد الربوبية ، وأن لهم رباً خالقاً ورازقاً ومحي ومميتاً لكنهم لا يلتزمون بأوامره ونواهيه ، وغير ذلك من الأمور التي لا ينبغي للمرء إلا أن يجعل الله فيها متحققاً بكل مشاعره واعتقاده من الله وإلى الله كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾

[الإسراء : ٥٦ ، ٥٧] .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : (يقول الله تعالى : يا محمد قل لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله . ادعوا الذين زعمتم من دونه) من الأصنام والأنداد فارغبوا إليهم فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم أى بالكلية ولا تحويلاً، أى بأن يحولوه إلى غيركم ، والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له ، الذي له الخلق والأمر قال العوني عن ابن عباس في قوله : (ادعوا

(١) سليمان بن عبد الله بن محمد عبد الوهاب / تيسير العزيز الحميد ط المكتب الإسلامي

الذين زعمتم الآية) قال : كان هناك أهل الشرك يقولون : نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً ، وهم الذين يدعون الملائكة والمسيح وعزير وقوله تعالى : (أولئك الذين يدعون الآية) روى البخارى من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن إبراهيم عن ابن معمر عن عبد الله في قوله : (أولئك الذين يبتغون إلى ربهم الوسيلة) قال : ناس من الجن كانوا يعبدون فأسلموا . وفي رواية قال : كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم . وقال قتادة عن معبد بن عبد الله الروماني ، عن عبد الله بن عتبة بن مسعود في قوله : (أولئك الذين يدعون ... الآية) قال : نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم ، فنزلت هذه الآية . وفي رواية عن ابن مسعود كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم : الجن فذكره ، وقال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) قال : عيسى وأمه ، وعزير . وقال مغيرة عن إبراهيم : كان ابن عباس يقول في هذه الآية هم : عيسى ، وعزير ، والشمس ، والقمر . وقال مجاهد : عيسى ، والعزير ، والملائكة ، واختار ابن جرير قول ابن مسعود لقوله : (يبتغون إلى ربهم الوسيلة) وهذا لا يعبر به عن الماضي فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة ، وقال : والوسيلة هي : القرية . كما قال قتادة : ولهذا قال أيهم أقرب . وفي قوله تعالى : (ويرجون رحمته ويخافون عذابه) لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء ، فبالخوف يكف عن المناهى ، وبالرجاء يكثر من الطاعات (^١) .

(١) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٤ و ٤٧ .

فهذه حقيقة العلم والعمل بشهادة لا إله إلا الله من خوف ورجاء وتوجه في كل الأمور من الله وإلى الله وذلك يتضح معنى شهادة أن لا إله إلا الله وهي : (نفى استحقاق العبادة عن كل ما سوى الله وإثباتها لله عز وجل وحده لا شريك له في عبادته أنه ليس له شريك في ملكه) ^(١) .

كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

[الحج : ٦٢] .

والنفى والإثبات لا يقتصر على أن ينفي العبدُ الألوهة كلها ويقتصر عبادته على الله وحده ، بل إن النفي والإثبات يتطرق إليه سبحانه وتعالى من نفي كل ما لا يليق به سبحانه من صفات نقص وإثبات كل كمال من صفات الجمال والجلال، ولا يعني أن الله سبحانه وتعالى جمع فيما وصف نفسه بين النفي والإثبات كما قال تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ وإنما جمع الله تعالى لنفسه بين النفي والإثبات لأنه لا يتم كمال الموصوف إلا بنفي صفات النقص ، وثبات صفات الكمال ، فكل الصفات التي نفاها الله عن نفسه صفات نقص كالإعياء واللغوب والعجز والظلم ومماثلة المخلوقين .

وكل ما أثبتته الله تعالى لنفسه فهو صفات كمال كما قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ [النحل ٦٠] سواء كانت من الصفات الذاتية التي يتصف بها أزلا وأبدا أم الصفات الفعلية ثابتا له أزلا وأبدا فغنى الله تعالى لم يزل فعالا ^(٢) .

(١) الشيخ حافظ آل حكيم / أعلام السنة المنشورة ص ١٢ وانظر حافظ آل حكيم ٢٠٠ سؤال في العقيدة ص ١٠ .

(٢) ابن تيمية / تقريب التتمرية ص ٤٦ .

وحقيقة شهادة أن لا إله إلا الله تتضح الآن في اعتقاد المرء بنفيه لجميع الآلهة التي تعبد من دون الله ونفى كل صفات النقص التي لا تليق بذات الله عز وجل ثم يثبت التي لا معبود بحق إلا الله وأن الله متصف بصفات الكمال التي تليق به سبحانه وتعالى وهذا لا يعنى من النفي والإثبات أن يستبعد المرء بعض الأشياء والمخلوقات التي يحبها الإنسان سواء أكان هذا الذي يحبه مطعماً أو مشرباً أو أزواج أو أولاد أو صالحون أولياء ، لكن هذه المحبة تكون باعتماد، بمعنى أن تكون هذه الأشياء حبا في الله والله، وهذه المحبة لا يترتب عليها شرك وخلق محبة الله ورسوله بمحبة هذه الأشياء، فالواجب حب الله ورسوله أو لا ثم يأتي بعد ذلك حب أشياء تعين وتساعد على محبة الله ورسوله، فمحبة هذه الأشياء تكون من الله وإلى الله وفي الله وهنا يتحقق معنى شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله، أما أشهد هنا فمعناها التيقن في قلبه بمعاني لا إله إلا الله كتيقن المشاهد المحسوس .

وأما معنى (لا إله) فنفي استحقاق جميع المخلوقات لمعنى الألوهية ونفى لوازمها : من غاية الخضوع والخوف والرجاء والتوكل ونحو ذلك ومعنى إلا الله إثبات استحقاق معنى الألوهية لله وحده مثل المحبة وما شاكلها ولا يضر مع ذلك محبة الأنبياء والصالحين لأجل أنهم أحباب الله امتثالاً لأمر الله بموالتهم ومحبتهم وكذا لا يضر محبة العبد حوائجه الضرورية من المأكل والمشرب ونحو ذلك لكن إذا كان قصده بذلك الاستعانة على طاعة الله ؛ لأن ذلك كله من المحبة لله وفي الله . وذلك من تمام محبة الله . وليس ذلك مطلوباً نفيه في كلمة الشهادة . وإنما المطلوب نفيه والإقلاع عنه : محبة الأشياء المخلوقة لا لله وفي الله بل لذواتهم؛ لأن المحبة الذاتية وهي التي تكون لا لعة ولا لسبب وتخصيصها به تعالى بالفعل ، عليها مدار السلام ولا تصح شهادة الإيمان إلا بهما . بدليل قوله تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم - إلى قوله - أحب إليكم

من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿ فالنظر إلى هذا التهديد الشديد لمن لا يكون حبه لله ورسوله والجهاد في سبيله أكثر من محبة الأشياء الثمانية المذكورة في الآية . قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله . والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ ولا تصح محبة الله إلا باتباع الرسول ، دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ الآية .

فصل : فإذا علم العبد هذه المعاني وأيقن بها قلبه : فحينئذ تصح شهادته وتكون معتبرة شرعا ولا يتم له الفوز إلا بعد أن يتحقق بالعمل فيصدق عمله حينئذ ما وقر في صدره من اليقين . وذلك بأن يتوب عن كل ما صدر منه من أنواع العبادة لغير الله مثل تعظيم المخلوقات ومحبة الصور والدينار والدرهم والتذلل والخضوع للمخلوق المريبوب فإنه لا يجتمع في قلب العبد محبة الله مع محبة غيره كما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه من المحال أن يجتمع في قلب العبد حب الدنيا مع حب خالقها ^(١) .

وهذه المقولة للإمام الشافعي هي حقيقة الإخلاص بشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله، إذ بهذه الشهادة يتحقق تقوى العبد لأنه التزم كلمة التقوى وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله حتى يكون مستحقا للدخول في أهلها وهم أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ لأن الله ﷻ عليم بذات الصدور، وما تكنها من قلوب حاملة لجوهر الإخلاص والتقوى لله عز وجل قال تعالى : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٦]. قال ابن كثير في تفسير كلمة : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ قال لا إله إلا الله، وكذا رواه الترمذي عن الحسن بن قرعة وقال : غريب لا نعرفه إلا من

(١) عبد الله بن حسن آل الشيخ العقيدة السلفية للفرقة الناجية المهدية ص ٤٥ .

حدثه وسألني أبو زرعة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن منصور الرمادي حدثنا عبد الله بن صالح حدثني الليث حدثني عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة رضي الله عنه أخبره أن رسول الله ﷺ قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ودمه ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل ﷻ وأنزل الله سبحانه وتعالى في كتابه وذكر قوما فقال: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾ .

وقال جل ثناؤه : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم حديبية فكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة وكذا روى بهذه الزيادات ابن جرير من حديث الزهري، والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهري والله أعلم .

وكلمة التقوى المتمثلة في قول لا إله إلا الله محمد رسول الله لها أبعاد ومعاني جميلة إذا تأمل القلب والعقل فيه ارتباط كلاهما ببعض التقوى بالتوحيد كلمة لا إله إلا الله فبين التقوى والتوحيد ملازمة معنوية ولفظية، أما المعنوية فقلبية من استحضار معاني التوحيد الخالصة لله ﷻ وهو توحيد الألوهية مع الربوبية من الله وإلى الله وأما المعنى اللفظي فهو تعبير المعنى القلبى فى الخارج على صورة ذكر اللسان بلا إله إلا الله دوما واستحضارا فى كل سكنات وحركات العبد المؤمن الذى كل أفعاله صالحة لله وعصيانا للشيطان، والنفس الأمار بالسوء حتى يكون العبد مرتديا لباس التقوى وهو خير لباس يرضى الله عنه لأنه التزم .

قال صالح الجعفرى : والملازمة قسمان : معنوية : وهى لزوم القلب لمعناها بعدد اللحظات حتى يخرج الروح وهى على هذا الحال .

(فائدة) : الميت إذا لم يقل عند الموت بلسانه لا إله إلا الله تكفيه الملازمة القلبية ، والذي بجواره يقول له : لا إله إلا الله محمد رسول الله مذكورة له الذي في قلبه ولا يقول له : قل ويسمى تلقين .

(الفائدة الثانية) : ملازمة ذكر اللسان لها والمراد بالملازمة هنا الإكثار من ذكرها .

(الفائدة الثالثة) : اتصال العامل بالمعمول إشارة إلى شيئين : الأول أنها توصل العبد إلى ربه .

الثاني : أن النطق باللسان متصل بما في القلب اتصال رأس النخلة بعروقهـا وهذه هي الملازمة اللفظية .

(كلمة التقوى) وهي جملتان وليست بكلمة ولكن قد تطلق الكلمة ويراد منها كلام ، قال ابن مالك رحمه الله : وكلمة بها كلام قد يؤم . واستدل بقوله تعالى : ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾ والإضافة سبب في التقوى لأن الصوفية يقولون : النفس الأمارة يصلح لها ذكر لا إله إلا الله ، وبه تنتقل إلى لوامة وتتوب على ماكان منها ويسمى تقيا لأنه اتقى أى ابتعد عن المعاصي بسبب التوبة والندم . والتقوى حروفها أربعة وكلمة التوحيد كلماتها أربع فيكتسب كل حرف من كلمة معنى ، فالتاء : توكل على الله تكتسب من لا ، والقاف : قناعة بما قسم الله تكتسب من إله ، والواو : ورع يكتسب من إلا ، والياء : يقين يكتسب من الله ، ولا إله إلا الله تنفى ما سوى الله من الآلهة الباطلة وتثبت الإله الحق . والتقوى تنفى طاعة الشيطان والهوى والنفس تثبت طاعة الله تعالى فهي تشبه الكلمة في الإثبات والنفي ، والتقوى لباس الذاكرين استعدادا لذكر الله تعالى لهم) قال تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ ولا يذكر الله تعالى عبده إلا إذا كان لابسـا لباس التقوى .

قال الله تعالى : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله ﴾ أى علامة على أن العبد يذكره ربه الآن فتعرفه الملائكة والملائكة يلتصقون أهل الذكر ويعرفونهم بلباس التقوى الدال على ذكر الله تعالى لهم والتقوى تفتح باب الإكرام الإلهي ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وكلمة التوحيد سبب التقوى والتقوى سبب الإكرام، ومن أجل صفات الإكرام ذكر الله تعالى لعبده والمعية الإلهية كما في الحديث القدسي : ﴿ أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفقتاه ﴾ وفي الحديث القدسي أيضا " وأنا معه حين يذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي " وهذا ما يسمى الذكر الخفي ويتسبب عنه عطاء خفي وظاهر، أما العطاء الخفي فهو حب الله تعالى الزائد عن حب الناس لله تعالى والأنس بالله تعالى أنسا خارقا للعادة ويتفرع عن هذا الأنس حب الخلوة مع الله تعالى ثم يحصل له التلذذ بذكر الله تعالى في الحالات الأربع ذكر اللسان ، وذكر القلب ، وذكر القلب واللسان معا ، وذكر الروح وسماع ذكر الله تعالى أو أى ذكره الحكيم .

أو نظره إلى مخلوقات الله تعالى لأنه في معاني كلمة التوحيد لا خالق إلا الله وبذلك تكون أية وجهة من كتاب الله تعالى ﴿ هذا خلق الله ﴾ فيرى الآثار الدالة على المؤثر، وفي معاني كلمة التوحيد لا بديع إلا الله فتكون أية وجهه من كتاب الله تعالى ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١٧٧، الأنعام: ١٠١] فيرى الكون كله بديعا حسنا ^(١) .

(١) صالح الجعفرى الصادقى الحسينى / فتح وفيض من الله ص٤ إلى ٦ .

الجوهرة السابعة

شروط شهادة : أن لا إله إلا الله

الجوهرة السابعة

شروط شهادة أن لا إله إلا الله

قلنا مسبقاً : إن شهادة لا إله إلا الله لها ركنين متمثلين في النفي والإثبات / نفي ما دون الله وإثبات الألوهية لله عز وجل ، ومعنى هذه الشهادة يتمثل في الاعتراف والإقرار بألوهية الواحد القهار وأنه واحد أحد لا شريك له يجب طاعته والامتثال إليه بالتسليم والمحبة والطاعة المنتهية فهذا يعد توحيد ألوهية وربوبية معاً ، ولهذه الشهادة شروط يجب الإحاطة بها حتى نقف على حقيقتها متمثلة في العلم بحقيقة تلك الشهادة نفياً وإثباتاً المنافي للجهل مع يقين القلب بعدم الشك في أن الله هو المعبود بحق من تسليم وقبول مترجم لعمل يقتصر على التلطف باللسان وحسب وهذا إلى جانب التعبير عن صدق ما يقول بالانقياد التام الذي هو ترجمة لصدق القلب ، لا كالمناقضين الذين يراعون الناس بالأعمال الصالحة وهذا مخالف لما في قلوبهم ، والإخلاص في العمل يدل على محبة العبد المحبة التامة دون غيره سبحانه بإخلاص ويقين ومحبة وانقياد دون أدنى مشاركة من محبة غير الله مع حب الله ؛ لأن الشريك له ديبب كدبيب النمل فيجب تطهير القلب من أى شرك ولو قل حتى ينال العبد رضى ربه وشروط شهادة لا إله إلا الله تتمثل في عدة نقاط نوردتها في النقاط الآتية .

أولاً : العلم بشهادة لا إله إلا الله نفياً وإثباتاً بأن ينفي العبد كل الأنداد والأوثان والأصنام وما يعبد من دون الله ليثبت إلهها واحداً لا شريك له وهو الله الواحد الأحد القهار (العلم بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً المنافي للجهل بذلك) . قال الله عز وجل : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] . وقال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٦] . أى : من

شهد بلا إله إلا الله وهم يعلمون بقلوبهم معنى ما نطقوا به بالسنتهم وفي الصحيح عن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة " (١) .

ثانيا : أن يستحضر العبد كل ما يستطيع من يقين تام بأن لا يشك أبدا في أن المعبود بحق هو الله الواحد القهار ، وأن ما ترتب على يقينه هذا هو الجزاء الأخرى من أن الجنة حق والنار حق (اليقين المنافي للشك وذلك بأن يكون قائلها مستيقنا بمدلول هذه الكلمة يقينا جازما) .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥] .

فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسله كونهم لم يرتابوا ، (أى لم يشكوا ، فأما المرتاب فهو من المنافقين - والعياذ بالله - الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة : ٤٥] .

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه من حديث طويل أن النبي ﷺ بعثه بنعيه فقال : من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره الجنة .. فاشترط في دخول قائلها أن يكون مستيقنا بها قلبه غير شاك فيها (٢) .

ثالثا : القبول لكل أحكام الله عز وجل والرضا بها سواء أكانت أوامر أو نواهي مع عدم الاستهزاء بأى شيء من تلك الأحكام أو قبول بعض من الأحكام دون الباقي بحجة الكسل أو عدم اقتناع العقل بها أو ما شابه ذلك من الحجج

(١) حافظ بن أحمد آل حكى مختصر معارج القبول ص ٩٨ .

(٢) حافظ بن أحمد آل حكى مختصر معارج القبول ص ٩٩ .

الواهيّة - المنافى لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه فالمشركون لم ينفوا ما نفته هذه الكلمة ولم يثبتوا ما أثبتته بل قالوا إنكارا واستكبارا : ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴾ [ص : ٥] .

وقال تعالى فيهم : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَّاكِرُونَ آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ [الصافات : ٣٥ و ٣٦] ^(١) .

رابعا : الاتقياد والتسليم لأحكام الله ولكل ما يأمرنا به أو ينهانا عنه حتى وإن خالف ميلنا الشخصي وأهواءنا النفسية فيشترط التسليم التام المصاحب للمحبة بقبول كل ما يأمرنا الله عز وجل به ، الاتقياد لما دلت عليه هذه الكلمة المنافى للترك .

قال الله عز وجل : ﴿ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ [الزمر : ٥٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾

[النساء : ١٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَسْلَمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ أى : بلا إله إلا الله - ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُور ﴾ ومعنى يسلم وجهه إلى الله وهو محسن ينقاد وهو محسن موحد وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] ، وإتمام الاتقياد وغايته ومعناه تقديم محبة الله وإن خالفت الهوى وبغض ما يبغضها الله وإن مال إليه الهوى ^(٢) .

خامسا : الصدق المطابق لما فى القلب دون نفاق أو رياء ، بمعنى أن العبد يكون صادقا مع نفسه مخرجا ما فى قلبه فى صورة أفعال مترجمة عما يعتقد

(١) المرجع السابق ص ١٠٠ .

(٢) حافظ بن أحمد آل حكى مختصر معارج القبول ص ١٠٠ .

داخل قلبه (فيها المنافى للكذب وهو أن يقولها صدقا من قلبه يواطى قلبه لسانه)
قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَحْصِبِ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ
وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾

[العنكبوت : ١ : ٣] .

وقال تعالى في شأن المنافقين كذبا ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ
وَبِالنَّبِيِّ الْأَخِيرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا
أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة : ٨ - ١٠] ، وفي الصحيح عن معاذ بن جبل رضى الله
عنه عن النبي ﷺ : (ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله
صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار) فاشتراط في إنجاء من قال هذه الكلمة من
النار أن يقولها صدقا من قلبه فلا ينفعه مجرد التلفظ بدون مواطاة القلب (١) .

سادسا : الإخلاص في النية وفي اليقين القلبى وفي التلفظ بها، أى بشهادة لا
إله إلا الله وفي الإخلاص في العمل كل هذه الجوانب يجب الإخلاص في الله
عز وجل دون أدنى شرك وإن قل (الإخلاص هو تصفية العمل بصالح النية عن
جميع شوائب الشرك ، ولا يكون له من وراء الشهادتين غرض آخر غير قصده
لربه ، فتارك الإخلاص لم يكتمل شروط لا إله إلا الله ولو كان منقادا صادقا مستقيما .

قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر : ٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾

[البينة : ٥] .

وفي الصحيح عن ابن مالك رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن الله
حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله عز وجل) .

(١) المرجع السابق ص ١٠١ .

سابعاً : المحبة الخالصة لشهادة لا إله إلا الله وما تتطلبه تلك الشهادة من امتثال تام بالمحبة الخالصة لله عز وجل ، إلى جانب محبة أهل هذه الكلمة من الذين دانوا بها والتزموا بحقيقتها ونفذوا وطبقوا شروطها مع البراء من كل من عاد شهادة لا إله إلا الله ولم يتمثل لها من أعداء الله المبغضين له ولرسله ولاحكامه المستهزئين بها والذين لم يفتقروا أثر الأنبياء وينقادوا نحو ما جاءوا به من هدى (المحبة لهذه الكلمة ، ولما اقتضته ودلت عليه ، ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها ، وبغض ما ناقض ذلك . قال الله عز وجل : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدَّ حُبّاً لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

فأخبر الله عز وجل أن عبادة المؤمنين أشد حبا له ؛ وذلك لأنهم لم يشركوا معه في محبته أحدا كما فعل مدعو محبته من المشركين الذين اتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه (١) .

ولهذه المحبة علامات واضحة يجب على العبد اتباعها منها :-

أ - تقديم محبة الله ورسوله على محبة هوى العبد وما يميل إليه هواه وهذا هو جهاد العبد لنفسه أو ما يسمى الجهاد الأكبر .

قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾

[الفرقان : ٤٣] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

(١) المرجع السابق ص ١٠٢ .

وفى الصحيحين عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار " وعن أبى هريرة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين " .

ب- الحرص على اتباع أثر النبى ﷺ وما تركه من سنة قولية وفعلية وإقرارية قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٣١ - ٣٢] .

وقال رسول الله ﷺ : " كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى " قالوا : يا رسول الله ، من أبى ؟ قال : (من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى) ^(١) .

ج - أن يوالى العبد إخوانه المؤمنين الذين التزموا بما أمر الله به ورسوله وأمنوا بتوحيد الألوهية ، فضلاً على توحيد الربوبية فهذا هو الولاء بين المؤمنين ، أما أعداء الله فيجب البراء منهم ومن كفرهم وشركهم قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : ٧١] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة : ٥٤ ، ٥٥] .

(١) رواه البخارى .

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكُمْ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمُ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

وقال ﷺ: "أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله" (١).

وسوف نتعرض للشرح والتفصيل عن هذه النقطة الأخيرة عند تحدثنا عن توحيد الألوهية وما ترتب عليه من ولاء وبراء، ولاء للمؤمنين وبراء ومعاداة للكافرين والمشركين أعداء الله.

(١) انظر سلسلة الأحاديث للألباني طبعة المكتب الإسلامي الطبعة الأولى ص ١٧٢٨.

الجوهرة الثامنة

العلم بشهادة «لا إله إلا الله»

طبقاً لقوله تعالى

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

الجوهرة الثامنة

العلم بشهادة لا إله إلا الله طبقاً لقوله تعالى

فاعلم أنه لا إله إلا الله

سبق أن ذكرنا أن شهادة لا إله إلا الله لها عدة شروط يجب توافرها في المتقدم، أو أهم هذه الشرط وأولها : هو العلم بأن لا إله بحق سوى الله عز وجل كما قال الله ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] فهذا إخبار من الله عز وجل بأن الله هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا شريك له ولا ولد والأمر في الآية فاعلم أنه لن نستطيع أن نجزم أنها وردت على سبيل الأمر ولا على سبيل الإخبار كما ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره فحجة أن الآية بها عطف الاستغفار على العلم واستغفر لذنبك .

أما حمل الأمر على الثبات فهذا أوجه وهو من باب الاستمرار والدوام على ما هو عليه من علمه بتحقيق لا إله إلا الله وتذكيره ﷺ بهذا الثبات الذي هو عليه ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ مسبب عن مجموع القصة من مفتتح السورة قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون ﴾ كأنه قيل : إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة هؤلاء فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية، فهو من موجبات السعادة وفسر الأمر بالعلم بالثبات عليه لأن علمه ﷺ بالتوحيد لا يجوز أن يترتب على ما ذكره سبحانه من الأحوال فإنه عليه الصلاة والسلام موحد عن علم حال ما يوحى إليه ولأن المعنى فتمسك بما أنت فيه من موجبات السعادة لا بطلب السعادة وقال بعض الأفاضل : إن الثبات أيضا حاصل له عليه الصلاة والسلام فأمره بذلك ﷺ تذكير له أنعم الله عليه وتوطئة لما بعده وتعقب بأن المراد بالثبات الاستمرار وهو بالنظر إلى الأزمنة الآتية وذلك إذا كان مما لا بد

من حصوله له عليه الصلاة والسلام لمكان العصمة لكن المعصوم يؤمر وينهى فيأتي بالمأمور ويترك المنهى ولا بد للعصمة (١) .

ولكن الأمر بخلاف ذلك على سبيل الأمر بالعلم ولا على سبيل الإخبار بل الأمر في الآية يجب أن يحمل على الثبات على التوحيد لأن الخطاب للنبي ﷺ والنبي ﷺ يعلم التوحيد وهو عليه فكيف يؤمر بالعلم به أما حمل إذا حملنا العلم عن الوجوب الجازم المستلزم لقيام العبد بالبحث والتتقيب عن حقيقة لا إله إلا الله وهذا يكون لأمة سيدنا محمد، وهذا يترتب عليه أمور، منها أن المعرفة واجبة على المكلف، وهذا يفيد أن المعرفة أول واجب على المطلق وهذه المسألة لا نستطيع الجزم بأنها من أركان الدين المعتقد، والأصح أن التقليد الجازم يكفى وسيأتي تفصيل ذلك بمشيئة الله .

أما ما يجب العلم به الآن هو ما يجب علينا تعلم أربع مسائل :

الأولى : العلم وهو معرفة الله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة .

الثانية : العمل به .

الثالثة : الدعوة إليه .

الرابعة : الصبر على الأذى فيه، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴾ [سورة : العصر] قال الشافعي رحمه الله : لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا السورة لكفتهم .

وقال البخاري رحمه الله تعالى ج ١ ص ٤٥ باب العلم قبل القول والعمل والدليل قوله تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لنفسك ﴾ فبدأ بالعلم قبل القول والعمل .

(١) تفسير الألويسي / ج ٢٦ ص ٥٥ دار إحياء التراث العربي روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني بيروت لبنان .

اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم هذه الثلاث مسائل والعمل بهن .

الأولى : أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً بل أرسل إلينا رسولا، فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، والدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا . فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ [المزمل : ١٥] .

الثانية : أن الله لا يرضى أن يشرك معه في عبادته أحد لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٨] .

الثالثة : أن من أطاع الرسول ووجد الله لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب، والدليل قوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

[المجادلة : ٢٢] ^(١) .

فهذه أربع مسائل مستلزمة للعبد المؤمن للدين الإسلامي بأن يفعلها فيكون بين العلم بربه ودينه ونبيه ثم يطبق ذلك عمليا بأن ينفذ كل أوامر ونواهي الشرع ثم يدعو غيره إلى ما اعتقده وعلمه وعلم به ويستلزم الدعوة إلى ذلك أن يحل نفسه بصبر سواء أودى أو لم يقع عليه أذى .

والمسألة الأولى : وهي العلم بالله والدين ، والرسول ﷺ هي ثلاثة أصول ينبغى للعبد الوقوف عليها وخصوصا الأصل الأول وهو معرفة الله عز وجل

(١) شيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب / الأصول الثلاثة ص ٣ - ٥ .

ولا نقصد بالوقوف على معرفة الله معرفة ذات الله وحقيقته وكنهه ولكن معرفة صفاته وسائر أحكامه، إذ لا يعرف الله إلا الله سبحانه وتعالى في الحديث (تفكروا في الخلق ولا تفكروا في ذاته) فإنه لا تحيط به الفكرة فترك الإدراك إدراك والبحث عن ذات الله إشراك، هذا بالنسبة للأصل الأول والذي هو مصدر وأصل الأصلين الآخرين وهما الدين والنبى ﷺ .

قال ابن عبد الوهاب : فإذا قيل لك : ما الأصول الثلاثة التى يجب على الإنسان معرفتها ؟ فقل : معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمدا ﷺ .

فإذا قيل لك : من ربك ؟ فقل : ربى الله الذى ربانى ورب جميع العالمين بنعمه وهو معبود ليس لى معبود سواه، والدليل قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] ولك من سوى الله عالم وأنا واحد من ذلك العالم فإذا قيل لك : بم عرفت ربك ؟ فقل : بآياته ومخلوقاته، ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ومن مخلوقاته السموات السبع وما فيهن وما بينهما، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٦] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ رِئُوسُ الثُّغُلَيَّاتِ يَبْتَغِي الْغَنَىٰ مِنَ اللَّهِ وَالْغَنَىٰ لِلَّهِ وَاللَّهُ يَبْذُلُهُمْ قَنَاطِيرُ إِنَّاسٍ ﴾ [الأعراف : ٥٤] والرب هو المعبود، والدليل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢، ٢١] .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة وأنواع العبادة التى أمر الله بها مثل الإسلام والإيمان والإحسان ومنه الدعاء

والخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرغبة والخشوع والخشية والإنابة والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها لله تعالى، والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن : ١٨] فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر^(١)، فهذا هو الأصل الأول في الأصول الثلاثة المشار إليه سابقاً ولكن هل هذا الأصل الأول وهو العلم بالله يجب أن يكون أمراً وجوبى على المكلف بمعنى أنه يستلزم النظر في الأدلة الموصلة لمعرفة الله أم يكفي التقليد بدون دليل أو بدون نظر وإذا كانت واجبة عن طريق النظر فهل المقصود بالنظر الفعلي أم الشرعى ؟ أم أن معرفة الله وغيره واجبة أصلاً ؟ وهذا ما اختلف فيه الفرق الكلامية وما سنبينه إن شاء الله ولكن قبل عرض ذلك يجب أن نعرف هل كان فرق بين العلم والمعرفة أم لا أو كلاهما يرادف بعضه البعض ؟

نقول أولاً : (حقيقة المعرفة : هي الجزم المطابق للواقع الناشئ عن دليل والمعرفة والعلم كلمتان مترادفتان بمعنى مثل البر والقمح والأسد والليث) .

(فإذا قيل : المعرفة يعنى بذلك العلم فهما صنوان، أى متماثلان فى المعنى وإن اختلفا فى شكل اللفظ ، وقيل: يختلفان فى المفهوم : فالمعرفة : فهم حقيقة الشيء المراد معرفته ، والعلم : وسيلة انكشاف المعلومات انكشافاً تاماً لا خفاء فيه .

وخرج بالجزم : الشك والظن والوهم فإنهم لا جزم فيهم)^(٢) .

وخرج بالمطابق للواقع المخالف كجزم الفلاسفة بقدم العالم وجزم المجوس بالقول بإلهين اثنين ، وجزم النصارى بالتثليث

(١) محمد بن عبد الوهاب حاشية الأصول الثلاثة ص ٢٦ . ٣٧

(٢) حاشية الشرقاوى على شرح الهدى على السوسية ص ٣ .

وقوله : الناشئ عن دليل : خرج به جزم المقلد وهو الأخذ بقول الغير بلا دليل فإن هذه الأمور لا تصلح أن تكون معرفة (المراد بالواقع : هو الشيء الثابت في نفسه يقاس عليه غيره والمراد به هنا علم الله تعالى وقيل : ما ثبت في اللوح المحفوظ ^(١) .

وقد أدلت الفرق الكلامية في هذا المجال بدلوها وهم فرق الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة والصوفية والحشوية وسوف نذكر بإذن الله بعضا مما ذكره في هذا المجال .

أولا : الأشاعرة والماتريدية وهم يسمون أنفسهم أهل السنة :

فقد قالوا بالنظر الشرعي دون العقلي ويشهد لها ما جاء من الآيات القرآنية التي حثت على النظر والتفكير في ملكوت الله وآثار مخلوقاته .

قال تعالى : ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ومثل قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ فَلَا تَبْصُرُونَ ﴾ . إلى جانب الآيات التي تنعى على الناس عدم استعمال عقولهم وتذمهم لسلوكهم مسلك التقليد والمقلدين ونحن نرى أن الأشاعرة والماتريدية قد قالوا بالنظر الشرعي، بمعنى أن جميع الأحكام ثبتت بالشرع إذ لا حكم قبل الشرع عندهم، فالشرع هو الذي يميز بين الحسن والقبيح عندهم، أما العقل فهو الذي يدرك تلك الأحكام فالشرع يوجب العلم، والعقل يدرك تلك الأحكام بقدر استطاعته لأن العقل يفهم الشرع بقدر طاقته، أما الشرع فيحكم شرود العقل وزيفه ومن ذلك يتبين أن الأشاعرة والماتريدية يقولون: إن الشرع دالٌّ وهادٍ للعقل فلا حكم للعقل قبل مجيء الشرع وهم يرون: أن بين العلم والمعرفة من وجه واحد وهو أن كلا منهما يعنى إدراك الشيء على ما هو عليه. إلا أن هناك تباينا بينهما من عدة وجوه وهي :

(١) عضد الدين الإيجي / المواقف ص ٣٢ ج ١ طبعة لبنان .

- ١- تطلق المعرفة على إدراك البسيط، ويطلق العلم على إدراك المركب فنقول : عرفت الله ولا تقول علمته (١)
- ٢- تطلق المعرفة على ما يدرك بآثاره ولا تدرك ذاته . ويطلق العلم على ما تدرك ذاته ولذلك يقال : عرفت الله، ولا يقال : علمته (٢)
- ٣- المعرفة مسبوقة بجهل ، أو إدراك مسبوق بجهل ، والعلم (٣) ليس كذلك ولذلك يقال للحق سبحانه وتعالى : عالم ولا يقال له : عارف (٤)
- ٤- قيل: إن المعرفة تستعمل في التصورات ، والعلم يستعمل في التصديقات؛ ولذلك نقول : عرفت الله ولا نقول علمته؛ لأن من شروط العلم أن يكون محيطاً بأحوال العلوم إحاطة تامة . ومن أجل وصف الله تعالى نفسه بالعلم لا بالمعرفة (٥)
- ٥- قال أبو حيان التوحيدى : (إن المعرفة أخص بالمحسوسات والمعانى الجزئية ، فى حين أن العلم أخص بالمعقولات والمعانى الكلية ولهذا لا يقال عن الله تعالى : إنه يعرف أو إنه عارف ، بل ينبغى أن يقال : إنه يعلم أو إنه عالم) (٦)

(١) مجمع اللغة العربية طبعة الهيئة العامة القاهرة سنة ١٩٧٣ ص ٢٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥ .

(٣) العلم : هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع . فالعلم : قديم وحادث . فالعلم القديم : هو القائم بذاته تعالى ولا يشبه بالعلوم المحدثة للعباد . التعريفات ص ١١٠ .

(٤) السيد الشريف على بن محمد بن على الجرجاني / التعريفات طبعة مصطفى الحلبي ١٩٤٨ ص ١٩٧ .

(٥) الإمام فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر مفاتيح الغيب المطبعة الخيرية . القاهرة ١٣٠٧ هجرية ج ١ ص ٢٨٣ .

(٦) أبو حيان التوحيدى المقابسات طبعة السندوني - القاهرة سنة ١٩٢٩ المقابلة رقم ٧ ص ٢٧٢ .

٦- المعرفة قد يراد بها العمل الذي تسبقه غفلة وليس العلم كذلك ومن ثم يسمى الله تعالى عليم وعالم الغيب علام الغيوب ولا يسمى عارفاً (١).

من هذا التباين السابق الذكر نجد أن العلم يضاده الجهل أما المعرفة فيضادها الإنكار؛ لأن الإنكار لا يتضمن أى اعتراف أو أى إقرار ويكفى القول أن الله ﷻ هو العالم بكل شيء عالم الغيب والشهادة وهو بكل شيء عليم، فعلمه لا يسبقه غفلة وهو ضد الجهل ورغم هذه التباينات بين اللفظين إلا أن بينهم قدر مشترك هو الإدراك، ومع أن المعرفة تدرك البسيط والعلم يدرك المركب إلا أن الله ﷻ قال : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) وهذا إشارة إلى أن الله ﷻ نبيه على علم تركيبه توحيد ألوهية تضاف إلى اسم الجلالة دون أى توحيد آخر من توحيد الربوبية أو توحيد الأسماء والصفات، فالله قال وأكد على قول لا إله إلا الله دون لا رب إلا الله لأن المقبول عند الله ﷻ هو هذا النوع من التوحيد فقط دون غيره وهو توحيد الألوهية ولا يظن جاهل أن فى قول الله : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) أمر بعلم شيء مركب وهو ضد البسيط؛ لأن الله عز وجل بسيط غير مركب وما قصدته من علم التركيب هو علم تركيبه توحيد الألوهية ونسبتها إلى اسم الجلالة (الله ﷻ) وبهذا يتضح أن التباين بين اللفظين غير مقبول، ومن الممكن أن نقول بينهما ترادف من باب إدراك الشيء .

ثانياً : المعتزلة :

أما المعتزلة فترى أن بين المعرفة والعلم ترادفاً، إذ أن كلاهما يترتب عليه تبين الشيء للعباد وتحققهم منه (يرى المعتزلة أن العلم والمعرفة مترادفان : إذ بالنسبة للعباد تبين وتحقيق ، وكلاهما يعنى ذلك المعنى الذى يقتضى سكون نفس

(١) الدوانى - على العقائد العنصرية تحقيق لمسيحان دنيا مطبعة عيسى الحلبي القاهرة

العالم إلى ما تناوله . وبذلك فإنه لا فرق بين المصطلحين ، ولا بين فائدتهما . ومن ثم يسمى كل عالم عارفاً (والمعتزلة توجب معرفة الله بالعقل ثم الشرع؛ لأن الشرع يأتي إما مبيناً لما خفى على العقل إدراكه أو مؤكداً لما قال به العقل . والعقل عندهم هو الذى يميز بين الحسن والقيح، وما يراه العقل حسناً فهو حسن وما يراه العقل قبيحاً فهو قبيح؛ لأن العقل لديهم يعرف المصلحة والحسن من القبيح ويأتى الشرع مؤكداً وموافقاً لما حسنه أو قبحه العقل أو يأتى الشرع مبيناً وموضحاً ما خفى على العقل إدراك حسنه أو قبحه مثل إدراك حسن صوم آخر يوم من رمضان وقبح صوم يوم الشك ولهم ثلاثة شروط فى إدراك المعرفة :

١- أن يكون الفعل ضرورياً.

٢- أن يكون قابلاً للنظر والتأمل .

٣- الاستعانة بالشرع فى إدراكه .

فالأشاعرة يخالفون المعتزلة فى الشرطين الأولين : أى الأول والثانى ويوافقون المعتزلة فى الشرط الثالث وهو استعانة بالشرع فى إدراك الأفعال أى معرفتها .

والأشاعرة يقولون : إن العقل يدرك الحكم من حسن أو قبح بواسطة الشرع وإن لم يدرك أن فى الفعل مصلحة أو مفسدة (١) .

أما المعتزلة فتحسن أو تقبح بواسطة العقل وقد أعطوا العقل أهمية كبيرة فى طريق المعرفة لديهم **لهم** درجة أنهم أولوا قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ٢٥] بالعقل لدرجة أنهم لم يعذروا أهل

(١) القاضى عبد الجبار المغنى فى أبواب التوحيد والعدل (تحقيق أحمد فؤاد الأهوانى) طبعة المؤسسة المصرية العامة القاهرة ١٩٦٢ .

الفترة^(١) بمعرفتهم لله ﷻ وحجتهم على أن معرفة الله واجبة بالعقل " إن شكره واجب عقلا لكثرة نعمه على العبد قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ وشكر المنعم عقلا ؛ لأن دفع الخوف عن النفس واجب عقلا وبالشكر يندفع الخوف عن النفس، فشكر الله تعالى - واجب عقلا ، وشكره يتوقف على معرفته تعالى .

إذن : معرفة الله واجب عقلا . وهي لا تحصل إلا بالنظر ، وما لا يتم الواجب إلا به - وكان مقدورا - فهو واجب عقلا (^(٢)) .

وهذا الدليل الذي ذكره المعتزلة مردود من خلال كلامهم ومن خلال منطق العقل الذي احتجوا به، وهذا يرجع إلى أن معرفة الله بالنظر العقلي كما قالوا به غير مقبول عقلا وشرعا، حيث إن معرفة الله قبل مجيء أى رسالة سماوية تكون معرفة العبد لربه بأنه وجود، وهذا بواسطة آية الميثاق التى ذكرت فى سورة الأعراف وأيضا بالفطرة السليمة وأيضا بالآيات الكونية الدالة على وجود الله، وهذه الأدلة الثلاثة كافية على معرفة العبد بأن الله، موجود وسيوضح هذا بموضعه بإذن الله، أما ما خلى ذلك من معرفة وحدانية الله وما ترتب عليها من توحيد الوهية وأمور شرعية هذا مترتب على بعثة النبی أو الرسول لأن العقل قاصر على إدراك تلك الأمور إلا بالشرع والعقل له حدوده ولذلك يقال: إن العقل يفهم الشرع بقدر طاقته ، والشرع يحكم العقل من شروده .

(١) أهل الفترة : موجودون وهم من لم تبلغهم دعوة النبی السابق ولم يرسل إليهم النبی اللاحق كمن بين موسى وعيسى من بنى إسرائيل ومن بين إسماعيل ومحمد ﷺ من العرب إذ لم يرسل إليهم نبي بعد إسماعيل من الأنبياء فالعرب أهل فترة حتى فى زمن أنبياء بنى إسرائيل لأنهم لم يؤمروا بدعائهم إلى الله - تعالى ولم يرسل إليهم بعد إسماعيل رسول وإسماعيل انتهت رسالته بموته كبقية الرسل، انظر حاشية الشيخ الشرفاوى ص ٢٩ .

(٢) أبى عبد الله محمد بن يوسف السنوسى الحسنى أم البراهين الكبرى ١٣٥٤ هجرية مصر ص ١٤

والمأمل في النزعة العقلية لدى المعتزلة يجد أنهم لم يستغنوا بالعقل عن الشرع، بل إنهم احتاجوا إلى الشرع في أمور كثيرة عجز العقل عن تفسيرها وإدراكها وما جعل المعتزلة على هذه الحالة من نزعة عقلية بحتة سوى تأثرهم بعقول الفلاسفة سواء يونان أو شرقيين ممن غالوا بعقولهم في أمور لا ينفع العقل فيها .

ثالثاً : الصوفية :

فالمعرفة لديهم معرفة بعيدة عن العقل تماماً وعن الحواس بل إنها تأتي من الإلهام والكشف الرباني .

قال أبو حامد الغزالي في بيان الفرق بين الإلهام والتعلم والفرق بين طريق الصوفية وطريق النظار في استكشاف الحق .

حيث قال: اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال تختلف الحال في حصولها فتارة تهجم على القلب كأنه ألقى من حيث لا يدري وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم، فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاماً والذي يحصل بالاستدلال والتعلم يسمى اعتباراً واستبصاراً ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى ما لا يدري العبد أنه طيف حصل له ومن أين حصل وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب والأول : يسمى إلهاماً ونفثاً في الروح. والثاني : يسمى وحياً وتختص به الأنبياء والأول : يختص به الأولياء والأصفياء والذي قبله المكتسب وهو بطريق الاستدلال يختص به العلماء^(١).

فالصوفية يرون أن المعارف تتأتى عن طريق الرياضة الروحية التي يكون فيها الصوفي متخلصاً من عالم الماديات وشوائبه ؟ فعندما يقوم الصوفي بهذه الرياضيات تصفو نفسه وتبلغ من الشفافية منزلة عالية فتتكشف عنها كل أمر

(١) أبو حامد الغزالي إحياء علوم الدين ج ٣ ص ١٨ ، ١٩ .

مستور شاء الله أن يكشفه هذا الصوفي . فهذه هي طريق المعرفة لدى الصوفية وهي تسمى بالبصيرة أو العلم اللدني فهذه طريقة الصوفية في المعرفة

والقلب له دور هام في طريق المعرفة الصوفية من كشف الحجب بالبصيرة الربانية والهامة يعلم رباني لمن شاء أن يكشف له من الأستار والأسرار الإلهية، وهناك فرق بين الوحي وما ترتب عليه من اختيار النبي أو الرسول والإلهام وما يترتب عليه من وجود أولياء ذوي بصيرة ربانية.

قال الجرجاني : إن هناك معرفة خارجية أو تعليمًا ربانيًا للإنسان بواسطة الوحي وتلك هي معرفة الأنبياء

وتسمى هذه اللطيفة الروحية وهي القلب. بالصدر لمناسبتها للنفس بوجه وتسمى بالفؤاد لمناسبتها للروح من وجه آخر (١) .

وقال الغزالي : (كما يسمى القلب كذلك بالبصيرة ، إذ إن منزلة البصيرة من العقل منزلة نور العين من العين) (٢)

وقال الرازي : (تطلق البصيرة على الإدراك التام الكامل الحاصل في القلب أي على المعرفة التامة بالنفس) (٣)

ويعرفها الزمخشري : (بأنها نور القلب الذي به يستبصر ، كما أن البصر نور العين الذي يبصر به) (٤) .

وهذا الطريق الصوفي في المعرفة يشكل حالات خاصة لأصحابها ولا نستطيع أن نقول إن هذا النوع من المعرفة يستطيع أي إنسان إدراكه لأنه طريق خاص وشاق ولا يستطيع إنسان الوصول إليه أو السير فيه إلا لمن شاء الله أن

(١) الجرجاني / التعريفات ص ١٦

(٢) الغزالي روضة الطالبين / مجموعة القصور العوالي ج٤ القاهرة سنة ١٩٧٢ ص٤٦

(٣) الرازي / مفاتيح الغيب ط١ ج٤ ص١١٩

(٤) للزمخشري / الكشاف ج٢ ص٤٢

يكون من أهله وهناك كثير من الناس من يتركونه لهذا السبب لأن كثيرا من المدعين قد أعلنوا أنهم سلكوا وساروا فيه وساروا من أهله .

قال الدكتور : مزروعة بقى بعد ذلك كلمة موجزة عن الوحي . هو الإلهام أو الفيض أو الإشراف . الذى يدعى الصوفية ومن جرى مجراهم أنهم يعرفون ربهم أو أنفسهم والكون . دون حاجة إلى حس أو عقل وهذا الطريق الصوفى هو معارض للحس والعقل ، فلا يستعمل هذا ولا يستعين بذلك بل يترك أصحابه الأسباب معتمدين على ما يدعون من فيوضات وإشراقات وإلهامات تأتيهم من الله تعالى - دون أخذ بالأسباب ، اللهم إلا المداومات والرياضات من تجويع النفس ، وإضعاف البدن إلى آخر ذلك .

وهذا الطريق - رغم أننى لا أسلم به تسليما مطلقا - إلا أنه لا كلام لنا فيه - لأنه يمثل حالات خاصة لأصحابه . وهو من الأمور الذوقية التى لا دليل عليها ولا تعرف إلا بالمزاولة ؛ لذلك نترك أصحابها وشأنهم ، داعين الله تعالى أن يهدى الجميع (١) .

فنحن لا نستطيع رفض هذا الطريق للمعرفة لعدم وقوفنا عليه أو إحساسنا به فهذا وذاك لا يعطينا التبرير لإنكاره، فأهل البصائر والإلهام والعلم اللدنى واقع موجود وإن لم ندركه ولكن اعتراضنا على من يدعى أنه منهم ويتباهى بكرامات لنفسه فهذا ما نرفضه ونرفض ادعاءه بكشفه لأستار الغيب أو ما شابه ذلك من ادعاءات يقصد بها إضلال الغير أو ابتزازهم ماديا ومعنويا .

رابعاً: المعرفة عند الحشوية :

الحشوية : هم الذين أنكروا وجوب المعرفة الموصلة إلى معرفة حقيقة الله ﷻ وحجتهم أن علم الله يتمثل فيما كتب فى اللوح المحفوظ وقد علمنا

(١) محمود محمد مزروعة مقال عن نظرية المعرفة بحث فى الحولية أصول الدين العدد السابع سنة ١٩٨٧ س ٩ .

بعضه من خلال ما نزل به الله من الكتب السماوية وما تلفظت به الأنبياء من حكم وسنن ، وأيضاً العقل لم يقف على تحديد وفهم لما شاء الله أن ينزل على عباده من هذه الكتب والسنن والدين مصدره القرآن والسنة وبذلك يتطلب عدم قيام الإنسان ببذل مجهود في معرفة ربه .

ذهب الحشوية إلى أن معرفة الله غير واجبة ، فالواجب عندهم : الاعتقاد الصحيح المطابق للواقع . والواقع هو علم الله - تعالى أو اللوح المحفوظ وحجتهم: أن الدين يتلقى من الكتاب والسنة فلا يحتاج إلى معرفة ^(١) لأن العلوم تحصل من طريقين : من التعلم بالنظر والكسب العقلي ، ومن التعليم الرباني وذلك يتوجه الباطن أو القلب إلى اللوح المحفوظ وهو ما يسمى عنده بالإلهام أو الكشف. هذا فيما يتعلق بالمعرفة الإنسانية إذ إن هناك معرفة خارجية أو تعليمًا ربانيًا للإنسان بواسطة الوحي وتلك هي معرفة الأنبياء .

التحقيق لمعنى المعرفة

بعد ما سبق ذكره عن المعرفة والعلم بالله عز وجل نستنتج بعض النقاط التي تحدد مفاهيم واضحة عما سبق ذكره حتى يمكننا تحديد الحكم على المقلد وهل يصح إيمانه أو لا؟، إلى غير ذلك من موضوعات تتعلق بهذا الموضوع لكن قبل ذكر ذلك يجب بيان تلك النقاط :

أولاً : أن لشهادة لا إله إلا الله شروط عديدة يأتي في مقدمتها وأهمها هو العلم بالله ومعرفة معرفته صحيحة كي يمكننا معرفة ما نعبد فنحن لا نعبد مجهولاً ولا مبهماً وقد قال الله تعالى : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ . [محمد : ١٩] .

^(١) شمس الدين بن عبد الرحمن الأصفهاني / شرح مطالع الأنظار على طوالع الأنوار طبع

بمصر عام ١٣٢٣ هجرية ص ٣٥

ثانيا : أن الأمر في آية سورة محمد ﷺ يأتي على عدة وجوه بعضها مرفوض وما تبقى هو الذي نعتقد أنه صواب بمشيئة الله من أهم هذه الوجوه :
 أن الأمر يأتي للعلم الجازم عن دليل، وهذا الوجه مرفوض لأن الخطاب موجه للنبي ﷺ والعلم بالشئ والأمر به يسبقه جهل وهذا ينتفي بالنسبة للنبي ﷺ من عدم علمه بالتوحيد .

والوجه الثاني : أن الأمر في الآية جاء على سبيل الإخبار لا على سبيل العلم الجازم المصاحب للدليل، وهذا ما ذكره ابن كثير في تفسير الآية نفسها.
 والإخبار نستبعده أيضا إذ أن الإخبار عن شئ يعني عدم العلم به مسبقا، والنبي ﷺ لا نستطيع أن نقول في حقه أنه كان غير مخبر بتوحيد الله لأنه ﷺ ثابت العلم بذلك مسبقا قبل الإخبار .

والوجه الثالث : أن الأمر في الآية جاء للنبي ﷺ على سبيل التثيت الذي هو عليه ﷺ من التوحيد والموجب للسعادة كما ذكره الألويسي في (روح المعاني) والرازي في كتاب (مفاتيح الغيب) .

الوجه الرابع: أن النبي ﷺ جاء الأمر في هذه الآية على سبيل التذكير للثبات الذي هو عليه من التوحيد لأن علمه ﷺ الجازم بالتوحيد ثابت راسخ . فقط الله سبحانه وتعالى يذكره به .

الوجه الخامس : أن الأمر في الآية ممكن أن يحمل على خطاب الأمة في شخص النبي ﷺ ، وفي هذه الحالة يمكن أن يأتي العلم بمعنى البحث عن الدليل ليتحقق العلم الجازم به أو على سبيل الإخبار بهذه الحقيقة حقيقة لا إله إلا الله من توحيد الألوهية الموجبة للسعادة أو على سبيل التذكير للفطرة التي تعلم أن لهذا العالم إله حق وهذا هو توحيد الربوبية .

ثالثا : يجب على العبد الذى يتمسك بهذا الدين أن يحيط علما وعملا بأربع مسائل : أولها : العلم بالله وبالدين وبالنبي ﷺ وثانيها : العمل بما علم وثالثها : الدعوة إليه إلى ما علم وعمل به، ورابعها : الصبر على ما علم به والصبر على ما يعمل به والصبر على قيامه بالدعوة والنصح بما علم وعمل به.

رابعاً : أن المسائل الأربع السابقة فى أول مسألة منهم وهى العلم بالله والدين والله ، والدين والنبي وهذه ثلاثة أصول ينبغى للعبد الوقوف عليها والبحث فيها وبخاصة الأصل الأول : وهو العلم بالله ﷻ ومعنى العلم بالله هنا هو العلم بوحديته سبحانه وصفاته وأسمائه لا على سبيل التفصيل والتكلف بل على سبيل الإيمان الغيبى جملة وعلى الغيب والتزيه لله ﷻ إلى جانب الوقوف على آثار الله ومخلوقاته وآياته فى الأنفس والآفاق التى تدل على وجوده ووحديته وتزويه بكل كمال وبذلك نستبعد الوقوف على علمنا بما لا يعيننا ويخصنا من ذات الله وكنهه وحقيقة صفاته لأن الإنسان، طاقة وقدره محدودة فلا يعلم الله إلا الله .

خامساً : يرى المعتزلة أن العلم بالنسبة للعباد يعنى التحقق والتبين، وهذا المعنى ينطبق على معنى المعرفة، إذ بينهما تباين أى بين العلم والمعرفة بل بينهما ترادف فنقول : إن كل عالم عارف وكل عارف عالم .

سادساً : ترى فرقة أهل السنة أن بين العلم والمعرفة نوع من الترادف وهو الإدراك للشيء كما هو عليه إلا أنهم ذكروا عدة فروق بينهما تباينا منها :-

١- أن العلم لا يسبقه جهل بخلاف المعرفة التى يسبقها جهل ولو فى الإدراك فنحن نقول : إن الله عالم ولا نقول : إنه عارف وأيضا خاطب الله رسوله والمؤمنين فى سورة محمد بلفظ (فاعلم) وهذا له دلالة عدم سبق الجهل بحقيقة لا إله إلا الله لأن بنى آدم يعلمونها بأية الميثاق والفطرة السليمة وأيضا

يطلق العلم على إدراك المركب ، والمعرفة على إدراك البسيط ولا يظن ظان أننا نعلم الله من خلال أمر آية سورة محمد على أنه مركب سبحانه وتعالى عما يتصورون ؛ بل الأمر بخلاف ذلك في الآية وحقيقته أن هذا أمر من الله ﷻ لعباده بأن يعلموا تركيبة توحيد الألوهية وهي لا إله إلا الله بإضافة نفى كل إله وإثبات أن الإله بحق هو الله ، وهذا بخلاف توحيد الربوبية فلم يقل الله : (فاعلم أنه لا رب إلا الله) ، فالله سبحانه يريد توحيد ألوهية لا توحيد ربوبية وأيضا من الممكن أن نقول عرفنا على أنه بسيط لا مركب من أجزاء ، وأيضا نقول: علمنا الله على أنه لفظ الجلالة مع نفى الآلهة عموما تشكل تركيبة خاصة من توحيد الألوهية وهي صرف أدنى العبادة لله ﷻ وأيضا يطلق العلم على إدراك الذوات، أما المعرفة : فتطلق على إدراك الآثار الموصلة لإدراك الذات فنقول أيضا : عرفنا الله بآثاره ولا نقول: علمنا الله بذاته وأيضا نقبض العلم الجهل ونقبض المعرفة الإنكار ؛ لأن في محتوى المعرفة الإقرار والاعتراف، أما في محتوى العلم الجهل وعدم العلم على التصديقات والإحاطة بالشئ، أما المعرفة : فتطلق على التصورات فنحن نقول الله عالم لأنه محيط بكل شئ علمه ولا نقول عليه: عارف .

سأبها : بعد اختلاف المعتزلة وأهل السنة في : هل هناك فرق بين المعرفة والعلم أو لا ؟ وجدنا أن معرفة الله للفرق الكلامية فيها خمسة آراء وهم : الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة والصوفية والحشوية .

وقد ذهب كل فرقة من هذه الفرق إلى رأى يناسب قواعد فرقتها من أن الأشاعرة والماتريدية : المعرفة عندهم يجب أن تكون مستمدة من الشرع . والعقل يكون بعد ذلك خادم وموصل إلى ما قال به الشرع، أما المعتزلة : فقالت بالمعرفة العقلية التي تسبق قول الشرع والذي يأتى موافقا أو مؤيدا أو موضحا لما قاله العقل .

أما الصوفية : فقد ذهبوا إلى طريق آخر وهو علم الشفافية والإشراق والبصيرة الذي هو علم اللدني من قبل الله ﷻ بحسب قدرة العبد على تصفية شوائب مادته لكي تصفو روحه وتتجلى بها الأسرار الربانية بعد كشف الحجج، أما فرقة الحشوية فقد قالوا : بأن المعرفة غير واجبة وهي معرفة الله ﷻ لأن المعرفة عندهم هي الاعتقاد الصحيح المطابق للواقع . والواقع هو ما كتب في اللوح المحفوظ من علم الله فكيف يتأتى للعبد معرفة هذا الواقع متناسين أن الله قد خفف عن العباد وخاطب عقولهم المحدودة بأن أنزل كتاباً سماوياً يسمى القرآن الكريم فيه محكم يجب العمل به وفيه متشابه يجب التسليم به لعدم قدرة عقل العبد على إدراك هذا المتشابه فيجب التسليم والإيمان به قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أَمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

[آل عمران : ٧] .

ثامناً : أن الفرق الخمس السابقة الذكر لا أجد لديها تحديداً معيناً ومحدداً فيما ينبغي معرفته عن الله ﷻ من معرفة وجود الله ، أو توحيده ، أو معرفة أسماء وصفات الله ، فهذه النقاط الثلاثة هامة جداً في تحديدها كي يمكننا معرفة الله ﷻ ، لأنه هذه النقاط الثلاث ينبغي عليها معرفة تحديد عصر معرفة الله هل هو عصر الرسالة ، أو عصر الفترة ؟ وأيضاً يربط عليه الحكم على الإنسان الذي يعيش في هذين الفترتين إلى جانب الحجة والدليل المستلزقة لهذا الحكم عليه وهذا ما سنبينه إن شاء الله في التالية .

تاسعاً : أما بالنسبة لتحديد موضوع معرفة وجود الله ، بمعنى أن هذا العالم وراءه خالق ومبدع له ، وهذا الخالق والمبدع لهذا العالم الموجود بالفعل سواء في

عصر الفترة أو في عصر وجود رسالة؛ لأن الإنسان الذى وجد فى عصر الفترة^(١) لا نستطيع أن نعذره ونسقط عنه مسئولية معرفة أن لهذا العالم إله بصرف النظر عن تصور هذا الإله أيا كان هذا التصور. المهم أن يعرف أنه هو والعالم الذى هو فيه مخلوقين لخالق مبدع قدير والحجة : الدليل على ذلك الفطرة التى بداخل الإنسان قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم : ٣٠] .

وقول النبى ﷺ : " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ... الحديث " .

(١) ذكر السيوطى وهو جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبى بكر محمد السيوطى فى كتاب الحاوى للفتاوى دار الكتب العلمية بيروت لبنان ج ٢ ص ٢٠٩ تحت عنوان الأحاديث الواردة فى أن هل الفترة يمتحنون يوم القيامة فمن أطاع منهم دخل الجنة ومن عصى دخل النار .

أهل الفترة : هم الأمم الكائنة بين أزمنة الرسل الذين لم يرسل إليهم الأول ولا أدركوا الثانى والأعراب هم الذين لم يرسل إليهم عيسى ولحقوا بالنبى ﷺ ، الفترة بهذا تشمل كل ما بين رسولين ولكن الفقهاء إذا تكلموا فى الفترة فإنما يعنون الذى بين عيسى والنبى ﷺ وأهل الفترة ثلاثة أقسام : الأول : من أدرك التوحيد ببصيرته ثم من هؤلاء من لم يدخل فى شريعته ك ((قس ابن ساعدة)) ومن دخل فى شريعته حق قائمة فى الرسم كتبع وقومه .

القسم الثانى : من بدل وغير وأشرك ولم يوجد وشرع لنفسه فحلل وحرم وهم الأكثر. وعمرو ابن يحيى أول من سن للعرب عادة عبادة الأصنام فشرع الأحكام وسيب السائبية والبحيرة ووصل الرصيلة وحمل الحامى وزادت العرب على ما شرعه أن عبدوا الجن - والنجوم - والملائكة واتخذوا بيوتا جعلوا لها سدنة وحجاب يضاهون بها الكعبة .

القسم الثالث : من لم يشرك ولم يوجد ولا دخل فى شريعة النبى ولا ابتكر لنفسه شريعة ولا اخترع ديناً بل بقى عمره على حين غفلة عن هذا كله، وهذا القسم هم أهل الفترة حقيقة وهم فيهم غير معذبين بالقطع وانظر البيهقى / الاعتقاد على مذهب أهل السنة والجماعة، ط دار الكتب العلمية بيروت ج ١ ص ٨٨ .

فالشرك أو الكفر يأتي من قبيل اكتساب الطفل لليهودية أو النصرانية أو المجوسية أو أى شيء من هذا القبيل كل هذا يأتي من خلال بيئته .

وأيضاً آية الميثاق وهى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ . وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢ - ١٧٣] ^(١) .

(١) يقول شارح العقيدة الطحاوية فى شرح هذه الآية الكريمة ١١٥ : واعلم أن من المفسرين من لم يذكر سوى القول بأن الله استخرج ذرية آدم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم ثم أعاده كالثعالى والبغوى وغيرهما . واعلم من لم يذكره بل ذكر أنه نصب لهم على ربوبيته ووحدانيته شهدت بها عقولهم وبصائرهم التى ركبها الله فيهم كالزخشرى .

- ومنهم من ذكر القولين كالواحدى والرازى والقرطبى وغيرهم، لكن سبب الرازى القول الأول إلى أهل السنة والثانى إلى المعتزلة . ولا ريب أن الآية لا تدل على القول الأول، أعنى أن الأخذ كان من ظهر آدم . وإنما فيها أن الأخذ من ظهور بنى آدم وإنما ذكر الأخذ من ظهر آدم والإشهاد عليهم هناك فى بعض الأحاديث

والآية لا تدل عليه لوجوه : أحدهما : أنه قال : (من بنى آدم) ولم يقل : من آدم . الثانى : أنه قال : (من ظهورهم) ولم يقل : من ظهره وهذا يدل بعض أو يدل اشتغال وهو أحسن .

الثالث : أنه قال : (دريتهم) ولم يقل : ذريته . الرابع : أنه قال : (وأشهدهم على أنفسهم) ولابد من أن يكون الشاهد ذاكرة لما شهد به وهو إنما ذكر شهادته بعد خروجه إلى هذه الدار كما تأتى الإشارة إلى ذلك لا بذكر شهادة قبله . الخامس : أنه سبحانه أخبر أن حكمة هذا الإشهاد إقامة للحجة عليهم لئلا يقول يوم القيامة : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ والحجة إنما قامت عليهم بالرسالة والفطرة التى-

فطروا عليها كما قال تعالى (رَسَلًا مَّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرِّسَالِ) [النساء : ١٦٥] .

السادس : تذكيرهم بذلك لئلا يقولوا يوم القيامة : (إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) [سورة الأعراف آية : ١٨٢] .

ومعلوم أنهم غافلون عن الإخراج لهم من صلب آدم كلهم وإشهادهم جميعا ذلك الوقت فهذا لا يذكره أحد منهم .

السابع : قوله تعالى : (أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ) [الأعراف : ١٧٣] .

فذكر حكمتين في هذه الإشهاد : لئلا يدعوا الغفلة أو يدعوا التقليد، فالغافل لا شعور له والمقلد متبع في تقليده لغيره ولا تترتب هاتان الحكمتان إلا على ما قامت به الحجة من الرسل والفطرة .

الثامن : قوله (أَفْتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُضِلُّونَ) [الأعراف : ١٧٣] أى : توعدهم بجحودهم وشركهم لما قالوا ذلك وهو سبحانه إنما يهلكهم بمخالفتهم رسله وتكذيبهم، وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم أهلها غافلون وإنما يهلكهم بعد الإعذار والإتذار بإرسال الرسل .

التاسع : أنه سبحانه أشهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقه واحتج عليه بهذا في غير موضع من كتابه كقوله : (وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) [لقمان : ٢٥] فهذه هي الحجة التي أشهدهم على أنفسهم بمضمونها وذكرتهم بها رسله بقولهم : (أَلَيْسَ اللَّهُ شَكَّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

العاشر : أنه جعل هذا آية وهي للدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلوها وهذا شأن آيات الرب تعالى فقال تعالى : (وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [الأعراف : ١٧٤] وإنما بالفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله فما من مولود إلا ويولد على الفطرة ولا يولد مولود على غير هذه الفطرة هذا أمر مفروغ منه لا تبديل ولا تغيير وقد تقدمت الإشارة إلى هذا والله أعلم (أبى جعفر الطحاوى شرح العقيدة الطحاوية شرحها ابن أبى العز الحنفى ص ٢٤٢ : ٢٤٥ طبعة المكتب الإسلامى ١٩٨٤)

وأيضاً حجة ودليل الآيات الكونية الدالة على وجود الله ﷻ مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْضَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] .

يقول القرطبي رحمه الله في تفسير الآيات : (أى : دلالات تدل على وحدانيته وقدرته؛ ولذلك هذه الأمور عقب قوله (واللهم إله واحد) ليدل على صدق الخبر عما ذكره قبلها في وحدانيته سبحانه، وذكر رحمته ورأفته بخلقه . وروى عن النبي ﷺ أنه قال : ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها أى لم يتفكر فيها ولم يعتبرها) (١) .

عاشرا : ما سبق ذكره من الحكم على العبد الذى فى عصر الفترة وفى البعد عن أى رسالة سماوية أنه لا يعذر لوجود الحجج من الله عليه وهى الفطرة وآية الميثاق والآيات الكونية، أما عصر الرسالة ووجود نبي أو رسول له كتاب سماوى من قبل الله فإن الإنسان لا يعذر أبدا فى مسألة إنكار وجود الله لأن الحجج عليه تضاعفت من فطرة وآية الميثاق والآيات الكونية إلى ما يزيد عليها من وجود النبي أو الرسول ونزول الكتاب السماوى من الله ﷻ .

وكل هذه حجج لا مرية فيها تؤكد وجود الله وتحج كل منكر يحاول ستر ذلك وكفرانه، فمنكر وجود الله سواء فى عصر الفترة أو فى عصر الرسالة كافر

(١) الإمام القرطبي تفسير القرطبي مطبعة دار الكتاب اللبناني والهيئة المصرية للكتاب ج ٢ مجلد ١ ص ١٩١ .

بالإجماع ولا يعذر أبدا فليس له أى عذر ^(١) لوجود كثير من الحجج عليه كما سبق ذكر ذلك .

الحادى عشر : وهى خاصة بوحداية الله، ففي عصر الفترة وهو العصر الذى ليس فيه أى رسالة سماوية ويحاول الإنسان فى هذه الفترة أن يجتهد فى تصور معبوده ، إله هذا الكون فإيمانه بوجود الله يوافق فطرته ويتمشى مع آية الميثاق التى شهد عليها فى عصر الذرارى إلى جانب الآيات الكونية التى تشهد بوجود الله، إلا أن تصور الإنسان لهذا الإله الذى تيقن من وجوده بالحجج السابقة تصور مشوش غير دقيق ومحدد؛ ولذلك قام هذا الإنسان بعملية اجتهد فى تحديد هذا الإله وما يتميز به من صفات فتارة يعبر عنه أو يتصوره أنه

(١) ليس له عذراى الإنسان الذى وجد فى هذه الحياة بسبب الحجج الثلاث (آية الميثاق ، والفطرة ، والآيات الكونية) فضلا على مجيء الرسالة المؤكدة للأئمة السابقة بأن الله موجود وهذا ينكرنا بمثال جماعة جالسين فى حجرة مغلقة ، فطرق عليهم طارق فجميع الجالسين فى هذه الحجرة غير معذورين فى إدراك طرق هذا الطارق؛ لأن كلهم قد سمعوا طرقه على الباب وكلهم متفقون على ذلك لهذا الإدراك الذى سمعوه ولم يتخلفوا سوى عند تصورهم لهذا الطارق هل هو كبير أو صغير رجل أو امرأة إلى غير ذلك، فعلى هذا التصور يعذرون لعدم تحققهم منه ومعرفتهم به إلا أن يعلن عن نفسه بحقيقة شخصيته، وهنا يكون الفرق فى عذرهم فى التصور وعدم عذرهم فى الإدراك وهذا يشبه طرق الله سبحانه وتعالى على قلوب وعقول وفطرة الإنسان فكلهم أدركوا أنه موجود ولا عذر لأحد فى هذا الإدراك ، لكن العذر يكون فى تصورهم له سبحانه بأن تصوره مجردا أو مجسما أو واحدا أو أكثر من ذلك أو نجما أو كوكبا أو قمرا إلى غير ذلك من التصورات التى حسمت بمجىء الشرع بأن الله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

متتمل في الشمس، وتارة أخرى في القمر وتارة ثالثة في النجوم وذكر ذلك في سورة الأنعام : ٧٦ - ٧٨ ^(١) .

إلى جانب من تصوره في الأصنام أو في البرق والرعد أو ما إلى ذلك من تصورات ساذجة وكانوا يعبرون عما تصوره بمسميات مختلفة، فالليونان يسمون إلههم زيوس، والفراعنة يسمون إلههم رع أو آمون والعرب يسمون إلههم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، والفرس يسمون إلههم هرمز وأهرمن وعبادة النار .

والهند يسمون إلههم براهمة، وبوذا وفشنوا سيفا إلى آخر هذه المسميات ^(٢) المختلفة التي تدل على اعتقادهم في وجود إله لهذا الكون لكنهم ضلوا في تصورهم له حتى النصارى واليهود، وهم من أهل كتاب سماوى قد ضلوا أيضا في تصورهم لإلههم وقالت اليهود : عزيز بن الله وقالت النصارى : المسيح ابن الله، تعالى الله عما قالوا وتصوروا، ومن كل ذلك يتضح لنا أن الإنسان في عصر الفترة التي ليس فيها أى رسالة سماوية تحدد حقيقة وحدانية الله يكون معذورا في تصوره لمعبوده لأن الإنسان مزود بغريزة التدين ويسعى دوما في إشباع تلك الغريزة بأى عبادة أى كانت وهذا يشبه رجلا ضل الطريق فسار في صحراء وقد فقد مؤونته من الماء والطعام فهو يحاول الإبقاء على حياته بأى ماء مهما كان سواء بول دابته أو بوله هو نفسه أو أى ماء عكر حتى يحافظ على

(١) فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الأفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدينى ربى لأكونن من الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون . إني وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين .
(٢) قال الدكتور مصطفى محمود فى كتابه (الله) ص ٤٧ : نزلت عقيدة التوحيد على آدم وعلمه ربه الأسماء كلها منذ الخلق الأول . ولهذا لا يصح القول بتطور الأديان من ناحية تنزلها الربانى لأنها وحى منزله لا يحتتمل النقص وعلم إلهى نزل كاملا من بدايته .

حياته إلى أن يصل إلى ما يعوضه عما قام به من ماء طئيب نقي، فحالته في الصحراء ضرورة اضطر إليها من أجل إشباع رغبته في الحياة يشابهها تخبط الإنسان في شركه عبر السنين والدور من أجل إشباع غريزة التدين حتى يظهر له الدين الحق من خلال أي رسالة سماوية تظهر له حقيقة الله ﷻ بأنه سبحانه واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فالإنسان معذور وغير محاسب على ما ارتكبه من شرك قبل دخوله في الدين الحق والدليل على ذلك أن هناك نصوصا صريحة من النبي ﷺ .

(إن إسلام المرء يجب ما قبله من الشرك) ^(١)، أما إذا مات أهل الفترة قبل دخولهم في الدين الحق أو إلحاقهم به فإنهم يمتحنون يوم القيامة، فالطائع الذي

(١) والذين يتكلمون عن تطور الأديان يقصدون بذلك شيئا آخر وهو معرفة الله اجتهدا وبالعقل الذي يخطئ ويصيب .. ومثل تلك المعرفة كان لها بالفعل تاريخ وتطور وهي غير المعرفة الأخرى الثابتة التي جاء بها الأنبياء .. ولقد نزل الوحي بين فترة وأخرى لإصلاح ما أفسده العقل وما أدخلته الأهواء على تلك المعارف ومنذ فجر التاريخ ، وقبل أن يعرف الإنسان كيف يطهو طعامه وكيف يبنى لنفسه بيتا ، أحس أنه لابد أنه يعبد شيئا، ولابد له أن يبنى لهذا المعبود بيتا كانت العبادة ضرورة أولى مثل ضرورة الحصول على الطعام والحصول على المأوى أدرك الإنسان البدائي بوجدانه أن روحه في حاجة إلى عقيدة تأوى إليها كانت روحه ترتجف جوعا إلى إيمان مثل جسده الذي يرتجف جوعا إلى اللقمة والذين احتفظوا بعبادة الأسلاف صنعوا لهؤلاء تماثيل وأصنام ترمز إليهم مثل اللات والعزى وهبل حتى تكون لمعبوداتهم أجسام تلمس ومواقع تزار، والبعض الآخر اتجه بعبادته إلى حيث يتصور مواقع القوة في الطبيعة فعبد الرياح والزوابع والبحر والكواكب والنجوم والنار وهكذا تعددت الأرباب بقدر تعدد حاجات الإنسان البدائي ومخاوفه .. فهو يعبد ربا للأمطار وربما للحرب وربما للتنازل ثم تلخصت هذه الأرباب في إلهين اثنين .. إله للخير وإله للشر .. مثل فشنوا وسيفا عند الهنود .. وهرمز وأهرمن عند الفرس .. -

يرصى ويومر بالتوحيد والله أعلم بحاله وباختياره فإنه يدخل الجنة ومن أبى
فالنار أولى به ^(١) .

= ثم ظهرت فكرة الإله الواحد ممثلة في الشمس أكبر ما ترى العين في السماء .. الإله
رع عند الفراعنة ، وفي اليونان زيوس كبير الآلهة الذي جعل من باقي الآلهة أربابا
صغاراً يعملون في خدمته ويدينون له بالولاء
انظر صحيح الإمام مسلم كتاب الإيمان باب كون الإسلام يهدم ما قبله ج ٢ ص ١٣٦ .
ومسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١٩٨ وأيضاً ص ٢٠٤ .
مسند أبي عوانة ج ١ ص ٧٠ .
الحاكم في المستدرک کتاب معرفة الصحابة ج ٣ ص ٤٥٤ .
وابن خزيمة کتاب المناسك ص ١٣١ .
والإمام البيهقي / دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ج ٤ ص ٣٤٣ سيرة ابن
هشام ج ٣ ص ٢٨٧ .
خالد محمد خالد رجال حول الرسول ص ٣٠٧ .

(١) يقول الإمام الشنقيطي في كتاب أضواء البيان ج ٣ ص ٤٤٠ :
الظاهر أن التحقيق في هذه المسألة التي هي : هل يعذر المشركون بالفترة أو لا ؟ هو
أنهم معدرون بالفترة فوجه الجمع بين الأدلة هو عدوهم بالفترة ، وأن الله يوم القيامة
يمتنحهم بنار يأمرهم باقتحامها، فمن اقتحمها دخل الجنة ، وهو الذي كان يصدق الرسل
لو جاءت في الدنيا ، ومن امتنع دخل النار وعذب فيها ، وهو الذي كان يكذب الرسل لو
جاءته في الدنيا؛ لأن الله يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل وبهذا الجمع تتفق
الأدلة، فيكون أهل الفترة معذورين وقوم منهم من أهل النار بعد الامتحان وقوم منهم من
أهل الجنة أيضاً .
قال ابن كثير في تفسيره ج ٣ ص ٢٩ في تفسير آية ١٥ من سورة الإسراء أحاديث كثيرة
في هذا الموضوع نذكر منها :
عن قيس بن الأسود أن رسول الله ﷺ قال : أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع
شيئاً ورجل حمق ورجل هرم . ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: رب قد جا -

ثاني عشر : أما في عصر وجود الرسالات السماوية الحقّة مثل الإسلام أو أى رسالة أخرى سماوية مثل اليهودية أو المسيحية قبل تحريفهما، فالأمر يكون بخلاف ما سبق ذكره تماماً، إذ أن الرسالة السماوية تقول كلمة حق وهي أن الله أحد، الله الصمد وأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فليس له شريك سبحانه وتعالى فلا عذر لأى مخلوق يحاول أن يطمس هذه الحقيقة أو أن يحوها أو يشيبيها بضلالات واهية لأن الدين الحق قد قال كلمته للاديان الوضعية التي اجتهد في تصويره للإله وللرسالات السماوية التي حرفت في وحدانية الله مثل اليهودية المسيحية قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠].

= الإسلام ولم أسمع شيئاً ، وأما الأحقق فيقول: قد جاء الإسلام والصبيان يحدقون بالبعر ، وأما الهرم فيقول : رب قد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذى مات فى أهل الفترة فيقول : رب ما أتانى رسول . فيأخذ مواعيقهم ليطعنه فيرسل إليهم أن ادخلوا النار. فو الذى نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً ثم قال ص ٣٠ من نفس الجزء : من ذهب منهم إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة فى عرصات المحشر . فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيه بسابق السعادة ومن عصى دخل النار داخراً ، وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة ، وهذا القول هو الذى حكاه الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة وهو الذى نصره الحافظ أبو بكر البيهقي فى كتاب الاعتقاد وكذلك غيره من محققى العلماء والحافظ والنقاد . ويقول الشنقيطى ج ٣ ص ٤٤٠ من كتاب أضواء البيان : إن الجمع بين الأدلة واجب متى ما أمكن بلا خلاف: لأن أعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما ولا وجه للجمع بين الأدلة إلا هذا القول بالعنبر والامتحان ، فمن دخل النار فهو الذى لم يمتثل ما أمر به عند ذلك الامتحان ويتفق بذلك جميع الأدلة . والعلم عند الله تعالى (

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ وَمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

[النساء : ١٧٠ و ١٧١] .

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

[البقرة : ١١٣] ^(١) .

(١) قال ابن كثير: بين به الله تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديتهم وتعاندكم كما قال محمد بن إسحاق: حدثني ابن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، اتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حرمة: ما أنتم على شيء وكفر بعيسى وبالإنجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء وجد نبوة موسى وكفر بالتوراة. فأنزل الله في ذلك من قولهما: (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب) قال: إن كلا يتلو في كتابه تصديق من كفر به أن يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة فيها ما أخذ إله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى وما جاء من التوراة من عند الله وكل يكفر بما في يد صاحبه . وقال مجاهد وقوله: (كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم) بين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوه به من القول وهذا من باب الإيماء والإشارة، وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى: (الذين لا يعلمون) فقال الربيع بن أنس وقتادة: (كذلك قال الذين لا يعلمون) قالوا: وقالت-

الثالث عشر :

أما بالنسبة لوقوف العبد على أسماء الله وصفاته وعلمه بها في عصر الفترة فإن العبد يعذر ولا يحاسب على ما يعتقد فيما قام به من نسبة أسماء وصفات معبوده الذي ارتضاه له ربا واعتقد بوجوده ذلك بسبب عدم وجود الرسالة التي تبين له حقيقة ذلك من أسماء الله وصفاته لأن أسماء الله وصفاته توقفية من قبل الشرع فلا اجتهد فيها .

الرابع عشر :

أما في عصر الرسالة وبعد مجيء خاتم النبيين ﷺ وما أنزل عليه من كتاب الله المعجز فقد أوقفنا على بعض أسماء الله وصفاته سبحانه التي يجب الإيمان بها جملة وعلى الغيب ما علمنا منها وما لم نعلمه قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِهَا تَخَافُ أَنْ يُبْدِلَهَا أَفْكَارًا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء : ١١١] .

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾

[طه : ٨] .

- النصارى مثل قول اليهود وقولهم وقال ابن جريج : قلت لعطاء (من هؤلاء الذين لا يعلمون) قال : أمم قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل وقال السدي : كذلك قال الذين لا يعلمون فهم العرب قالوا : ليس محمد على شيء ، واختار أبو جعفر بن جريج أنها عامة تصلح للجميع وليس ثم دليل قاطع يعين واحدا من هذه الأقوال والحمل على الجميع والله أعلم) . انظر ابن كثير تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٥٥ .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِيءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾

[الحشر : ٢٤].

فلا عذر لمن أوقفه الشرع على اسم من أسماء الله أو صفة بأن ينكرها أو يجدها أما الذين لم يتفقهوا في الدين من العوام ولم يعلموا ما جاء به الشرع من كل أسماء الله وصفاته . فهؤلاء يعذرون وإيمانهم صحيح لأنهم آمنوا بجملة الأسماء والصفات لله ﷻ . إيمان غيبى لا شك فيه فإذا أنكر أحدهم أى اسم أو صفة لله ﷻ قبل توقيف العالم لهذا الأسمى الذى لا يعلم الأسماء والصفات فهو يعذر لجهله وإن لم يعلم تفاصيل صفات ما يجب لله ^(١) .

(١) قال البيهقي في كتاب الأسماء والصفات طبعة إحياء التراث العربى ص ٤٦٨ الأحاديث الواردة في باب الصفات على ثلاث مراتب : الأولى : ما ورد من الألفاظ وهو كمال محض ليس للنقائص والأفات فيه حظ ، فهذا يجب اعتقاده . الثانية : ما ورد وهو نقص محض ، فهذا ليس لله فيه نصيب فلا يضاف إليه وهو محجوب عنه في المعنى ضرورة ، كقوله : عبدى مرضت فلم تعدنى وما أشبهه . الثالثة : ما يكون كمالا ولكنه يوهم تشبيها ، فأما الذى ورد كمال محض : كالوحدانية والعلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر والإحاطة والتقدير وعدم المثل والنظير ، فلا كلام فيها ولا توقف . وأما الذى ورد بالآفات المحضة والنقائص كقوله : (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) . وقوله : جعت فلم تطعمنى أو عطشت فقد علم المحفوظون والملفوظون والعالم والجاهل أن ذلك كناية عن تتعلق به هذه النقائص . وإذا جاءت الألفاظ المحتملة التى تكون للكمال بوجه وللنقصان بوجه . وجب على كل مؤمن حصيف أن يجعلها كناية عن المعانى التى تجوز عليه . وينفى ما لا يجوز عليه . فقوله فى اليد والساعد والكف والإصبع عبارات بدیعة .. تدل عليه معانى شريفة فإن الساعد عند العرب عليها كانت تعول فى القوة والبطش فأضيف الساعد إلى الله؛ لأن الأمر كله لله .

وإيمانه صحيح ^(١) وتقليده للعالم مقبول شرعاً، وهذه النقطة تجعلنا نشير موضوع إيمان المقلد وأنواعه وأصح الآراء فيه والله المستعان وما سبق ذكره من تحقيق معنى معرفة وجود الله ووحدانيته وأسماء وصفاته تعالى في عصرى الفترة والرسالة والحكم على أصحاب هذه العصور وحجة كل منهم، هذا كله موضح فى جدول مبين على النحو الآتى :

عرض الموضوع	عصر الفترة	الحكم	الحجة والدليل	عصر الرسالة	الحكم	الحجة والدليل	نوع التوحيد
وجود الله	لا يعذر	منكره كافر	آية الميثاق والفترة والآيات الكونية	لا يعذر أبداً	كافر بالاتفاق	رسالة - أدلة عصر الفترة	توحيد ربوبية
توحيد الله	يعذر	ليس كافراً وإن كان مشركاً	عدم وجود الرسالة والإسلام يجب ما قبله	لا يعذر على الإطلاق	كافر بالاتفاق	أدلة عقلية ونقلية	توحيد كونهية
أسماء الله وصفاته	يعذر	غير كافر	عدم وجود الرسالة	يعذر بعد الإحاطة	غير كافر	هذا النوع من سنن العقيدة والإيمان بها يكون جملة وعلى الغيب	توحيد أسماء وصفات

(١) قال الإمام الطحاوى فى كتاب شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٣٥ أما زيادة الإيمان من جهة الإجمال والتفصيل :- فمعلوم أنه لا يجب فى أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله ولا يجب على كل أحد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه خبره كما فى حق النجاشى وأمثاله ، وأقول : إن أمثاله الذين يؤمنون بصفات الله جملة وعلى الغيب دون تفصيل بالإحاطة بها كما ذكرت فى الشرع فهذا يعد فى حد ذاته إيماناً صحيحاً

التقليد والمقلد :

التقليد هو : تقليد الغير في القول والفعل دون الإتيان بدليل على ما قاله أو على ما فعله، وهنا سؤال يطرح نفسه وهو هل يصح التقليد في أصل الدين من الاعتقاد من وجود الله وتوحيده وما ينسب إليه من صفات

والجواب على هذا السؤال يتطلب تفصيلا بالنسبة لمن يقلده المقلد هل هو عالم أو هو مقلد من العوام ؟ وهل التقليد هذا في أصول الدين وما يتعلق بالعقيدة أو هو متعلق بفروع الدين؟ والجواب على هذا السؤال : مشروط وأن يقلد المقلد غيره من العلماء في الفروع دون الأصول؛ لأن أصل الدين المتعلق بالعقيدة لا يجوز ولا يصح التقليد فيها؛ لأنها متعلقة باعتقاد المرء بوجود الله وأيضا اعتقاد المرء بأن إلهه الذي اعتقد أنه موجود وهو واحد لا شريك له، والاعتقاد في وجود الله وتوحيده لا يستطيع أى إنسان أن يقول إنه يجوز فيه التقليد؛ لأن كل إنسان محاسب على هذين الأمرين وهما الاعتقاد في وجود الله وفى وحدانيته لما توفرت فيه عليها الحجج والأدلة التى لا تنكر من فطرة وآية ميثاق التى شاهدنا على أنفسنا بها والآيات الكونية التى حولنا وفوقنا والرسالات السماوية التى أقرها الدين الحق وهو دين الإسلام والأنبياء والرسل الذين أرسلوا من قبل الله وكان أحرم خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ ، فكل هذه حجج وأدلة تمنع التقليد فى هذين الأمرين بالذات .

قال الإسفرايينى .. أن تعلم أن كل ما يجب معرفته فى أصول الاعتقاد يجب على كل بالغ عاقل أن يعرفه فى حق نفسه معرفة صحيحة صادرة عن دلالة عقلية لا يجوز أن يقلد فيه ولا أن يتكل الأب على الابن ولا الابن على الأب ولا الزوجة على الزوج بل يستوى فيه الجميع العقلاء من الرجال والنساء، أما فيما يتعلق بفروع الشريعة من المسائل فيجوز أن يقلد فيه من كل من أهل الاجتهاد فى التقليد فى الأصول وحث على السؤال فى الفروع إما مذمة التقليد فى

الأصول، ففي قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ وأما الحث على السؤال في الفروع ففي قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

وقد اختلف العلماء في إيمان المقلد وهذا راجع إلى سبب تروده وآراء العلماء في ذلك الشأن ستة آراء (قال الإمام البيهقي: الأول: عدم الاكتفاء، بمعنى عدم صحة التقليد فيكون المقلد كافراً وعليه السنوسي في الكبرى

الثاني: الاكتفاء بالتقليد مع العصيان مطلقاً أي سواء كان فيه أهلية للنظر أم لا .

الثالث: الاكتفاء به مع العصيان إن كان فيها أهلية للنظر وإلا فلا عصيان.

الرابع: أن من قلد القرآن والسنة القطعية صح إيمانه لاتباعه القطعي، ومن قلد غير ذلك لم يصح إيمانه لعدم أمن الخطأ على غير المعصوم .

الخامس: الاكتفاء به من غير عصيان مطلقاً؛ لأن النظر شرط كمال فمن كان فيها أهلية النظر ولم ينظر فقد ترك الأولى .

السادس: أن إيمان المقلد صحيح ويحرم عليه النظر وهو محمول على المخلوط بالفلسفة^(٢).

وأرى أن الرأي الرابع فيه صواب كثير للالتزام بالقرآن والسنة وهما كفيلاين بعصمة بعدم الوقوع في الخطأ إذا ما التزم المقلد تقليد عالم مؤيد بأحكام القرآن والسنة، وإيمان المقلد يعتبر صحيحاً إذا ما قلد إكهام فرعية في الدين أو مسائل تنعصى عليه فهمها والإحاطة بها مثل الإيمان بصفات الله تفصيلاً وما يجب ويستحيل في حق الله ورسله تفصيلاً إلى غير ذلك، إما إجمالاً فهو مطالب بعدم التقليد مثل الإيمان بوجود الله وبوحدانيته في حين يرى الشيخ البيهقي أن

(١) أبو مظهر الاسفراييني التبصير في الدين طبع سنة ١٩٥٥ الباب الحلبى ص ١٦٢ .

(٢) الشيخ إبراهيم الجوهري شرح البيهقي على الجوهرة ص ٤١ .

الرأى الثالث هو أصح الآراء ^(١) لما يراه من أهلية النظر في المقلد ونقول له :
 إن الدين الإسلامى بسيط عقائده لا تحتاج إلى الأدلة الكلامية والمناظرات العلمية
 فى إثبات الأصول من الإيمان بوجود الله ووحدانيته لأن تلك الأصول لا تحتاج
 إلى نذر بل الفطرة تدركها والعقل يصدقها والقلب ترسخ فيه الإيمان .

* * * * *

(١) قال الشيخ البيجورى : وللقول الحق الذى عليه المعول من هذه الأقوال هو القول الثالث،
 والصواب أن هذا الخلاف مطلق أى جار فى النظر الموصل لمعرفة الله تعالى وفى غيره
 كالنظر الموصل لمعرفة الرس خلاف لمن خص الخلاف بالنظر غير الموصل لمعرفة
 الله تعالى وقال : أما النظر الموصل لمعرفة الله تعالى فهو واجب بالإجماع وقد جرى
 على ذلك الشيخ عبد السلام، والراجح أنه لا فرق فى هذا الخلاف بين أهل الأمصار
 والقرى وبين من نشأ فى شاهق جبل خلافا لمن خصه بمن نشأ فى شاهق جبل دون أهل
 الأمصار والقرى، وقد جرى على ذلك الشيخ عبد السلام وحكى الأمدى اتفاق الأصحاب
 على انتفاء كفر المقلد وأنه لا يعرف القول بعدم صحة إيمانه إلا لأبى هاشم الجبائى من
 المعتزلة، وذكر ابن حجر عن بعضهم أنه أنكر وجوب المعرفة أصلا وقال : إنها حاصلة
 بأصل الفطرة ، واستدل على ذلك بقوله ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴾ ويقول
 رحمه الله : (كل مولود يولد على الفطرة) ولذلك قال أبو منصور الماترىدى أجمع أصحابنا
 على أن العوام مؤمنون عارفون بربهم وأنهم حشو الجنة كما جاءت به الأخبار وانعقد به
 الإجماع فإن فطرتهم جبلت على توحيد الصانع وقدمه وحدث ما سواه وإن عجزوا عن
 التعبير عنه باصطلاح المتكلمين وانظر أيضا فتح وفيض من الله ص ٤١ .

الجوهرة التاسعة

فضل شهادة « أن لا إله إلا الله »

الجوهرة التاسعة

فضل شهادة « أن لا إله إلا الله »

إن الذي علم شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله وعرف الله سبحانه وتعالى حق المعرفة وتيقن من أنه سبحانه هو المعبود بحق وأنه أرسل نبيه ورسله وخاتم أنبيائه ورسله إلى العالمين رحمة وهدايا في الدارين دار الدنيا ودار الآخرة، هذا لمن أصلح دينه وتمسك بالشهادتين وطبق شروطهما وتوجه إلى الله خالصا من كل قلبه وحده سبحانه توحيد ألوهية فضلا عن توحيده توحيد ربوبية بأن يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى لا يعبد إلا إياه فلا يخاف إلا منه ولا يرجو سواه ولا يرهب إلا منه ولا يحلف إلا باسمه ولا يستغاث في الشدائد إلا به ولا يلتجأ إلا إليه ولا يسجد إلا له ولا يذبح إلا له وباسمه، وهذا كله متمثل في نطق العبد بالشهادتين ثم قيامه بتطبيق مستلزمات تلك الشهادة حينئذ يبدو للعبد فضل من الله العظيم من سبق هذا من فضل تلك الشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ليس في الدنيا وحسب بل في الدنيا والآخرة بالتأكيد أن النافر من تلك الشهادتين المكذب لهما يحدث له كل ضيق وشدة وبؤس يقع عليه في الدنيا والآخرة (كلما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو إليه أحوج كان تألمه بفقدته أشد وكلما كان عدمه أنفع له كان تألمه بوجوده أشد ، ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله واشتغاله بذكره ونعمه بحبه وإيثاره لمرضاته بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك فعدمه ألم شيء له وأشدّه عليه ، وإنما تغيب الروح عن شهود هذا العذاب والألم لاشتغالها بغيره

واستغراقها في ذلك الغير ... فأعرض الآن عن نفسك أعظم محبوب لك في الدنيا بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه ، فأصبحت وقد أخذ منك وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت إليه فكيف يكون حالك ، هذا ومنه كل عوض فكيف بمن لا عوض عنه كما قيل (١) .

وشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله لا عوض عنها ألبتة، فبهذه الشهادة ينجو العبد من عذاب الله وعقابه ويتكون له درجات عليا في جنات عدن شهدت بذلك أحاديث النبي فضلا عن تكفير ذنوب العبد مهما كان حجمها ومهما كثرت فإن كلمة لا إله إلا الله لا يتقل معها أى شيء وهذا يرجع إلى أن أفضل ما يذكر به الله هي الشهاداتين لأنها أثقل شيء في الميزان كما في حديث البطاقة (٢) وهي أعلى شعب الإيمان .

(١) ابن قيم الجوزية / المعارف السنوية بقلم عبد الرحمن بن عبد العزيز بن محمد بن سحمان ص ١٣٥ ، أعيد طبعه على نفقة فاعلة خير من حيفا فلسطين .

(٢) روى الترمذى والنسائى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رهوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا، كل سجل مثل مد البصر ثم يقول : أتتكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يارب . فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يارب . فيقول : بلى إن لك عندى حسنة ، وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فيقول : أحضر وزنك ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال : فإنك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يتقل مع اسم الله تعالى شيء)

والأحاديث النبوية الدالة على ذلك كثيرة للغاية، وقد ذكرت بعضها في الجوهرة الخامسة والتي بعنوان الشهادتين من السنة المطهرة ومن هذه النصوص الشريفة نخلص إلى النقاط الآتية :

أولاً : أن كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله هي الاستمساك بالعروة الوثقى؛ لأنها متضمنة على الكفر بكل ما يعبد من دون الله والإيمان بالله وحده لا شريك له، وهذا معنى لا إله إلا الله قال تعالى: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة : ٢٥٦]

ثانياً: هي أعظم نعمة وأول نعمة أنعم الله بها على عباده حيث يترتب عليها النجاة من غضب الله وعقابه والفوز برضاه وجنته قال تعالى : ﴿ يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل : ٢]

ثالثاً : شهادة لا إله إلا الله هي كلمة العهد بين الله سبحانه وتعالى وبين عباده قال تعالى: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾

[مريم : ٧٨]

وهذا مثبت من خلال حديث الشفاعة السابق الذكر وقد ذكر ابن عباس أن العهد المقصود في الآية هو شهادة أن لا إله إلا الله والبراءة من الحول والقوة إلا بالله ذات لا يرجو إلا الله ﷻ (١) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٦

رابعاً : وهى الشهادة بلا إله إلا الله وهى كلمة الحق المرادة عند الله سبحانه وتعالى قال تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْتَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] .

خامساً : هى القول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة خصوصاً عند بداية آخرة الإنسان من بدء سؤال القبر عن ربه قال تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

سادساً : وفى الشهادة أعلى مراتب الإيمان وهى التقوى كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ كَلِمَةُ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح : ٢٦] .

سابعاً : وهى كلمة الحسنى التى يرضى الله بها على عباده ويدخلهم بموجبها فى رضوانه لينالوا ويتمتعوا بجناته قال تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل : ٥] أى صدق بشهادة لا إله إلا الله وعمل بها .

ثامناً : وهى الكلمة الطيبة المقصودة من قول الله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شهادة أن لا إله إلا الله كشجرة طيبة ، وهو المؤمن أصلها ثابت يقول : لا إله إلا الله فى قلب المؤمن وفرعها فى السماء يقول : يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء وهكذا^(١).

تاسعاً : شهادة لا إله إلا الله أفضل الذكر الذى ذكره صفوة خلق الله وهم الأنبياء والمرسلون .

(١) تفسير بن كثير ج ٢ ص ٥٣٠ .

قال النبي ﷺ : " أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله " ^(١)

عاشراً : أن الشهادة تتجى صاحبها من النار إذا قالها خالصاً من قلبه لا يدعو مع الله أى شريك ولا ند، وهناك أحاديث نبوية دالة على ذلك ما ذكرناه مسبقاً ومنها حديث يقول " اخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه متقال ذرة من إيمان " ^(٢)

حادى عشر : أن الشهادة هنا أول أركان الإيمان طبقاً لحديث جبريل عليه السلام لنبيينا ﷺ (ما الإيمان؟) وهو الشهادة أيضاً هى أعلى مراتب الإيمان طبقاً لحديث (الإيمان بضع وسبعون شعبة) السابق الذكر هذا إلى جانب أن الشهادة هى أول أركان الإسلام أيضاً طبقاً لحديث النبي ﷺ " بنى الإسلام على خمس " .

ثانى عشر : أن الشهادة هى أثقل شىء فى الميزان ولا يتقل معها أى شىء آخر، كما ورد فى حديث البطاقة السابق الذكر وأيضاً حديث أن نوحاً عليه السلام قال لابنه عند موته : (أمرك بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعن فى كفة ووضعيت لا إله إلا الله فى كفة لرجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمه لقصمتهن لا إله إلا الله) ^(٣) .

ثالث عشر : أن بالشهادة تكون الشفاعة يوم القيامة لمن قال بها وفى قلبه متقال ذرة من إيمان لله رب العالمين، وهذا طبقاً لأحاديث الشفاعة السابقة الذكر.

(١) حسنه الألبانى فى صحيحه رقم ١٥٠٣ صحيح الجامع

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم ج ٣ ص ١٧ ، وسنن الترمذى رقم ٢٠٩١ وفتح البارى

ص ٩١ ج ١١ ص ٢٢٤ .

(٣) قاله الألبانى فى الصحيحة رقم ١٣٤ .

رابع عشر : يترتب على شفاعة النبي ﷺ لأى عبد شهد أن لا إله إلا الله دخول الجنة طبقا لحديث النبي لما ذكره النبي (أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة) .

خامس عشر : أن شهادة لا إله إلا الله حصن منيع للعبد الذى يرغب فى النجاة من العذاب عذاب القبر وعذاب الآخرة وهذا طبقا لأحاديث تلقين الميت وهو قوله ﷺ : (لا إله إلا الله حصنى من قالها دخل حصنى) السابق الذكر .

سادس عشر : أن شهادة لا إله إلا الله وهى متضمنة عدم الإشراك بالله هذا يعطى للعبد أمل النجاة فى رحمة الله ومغفرته بأن يحو كل خطاياهم مهما بلغت ولو كانت قراب الأرض، وحديث يشرط أن يأتى العبد وهو لا يشرك بربه أحدا، وهذا ثابت من خلال حديث النبي ﷺ الدال على ذلك .

سابع عشر : أن من كان آخر كلامه قول لا إله إلا الله محمد رسول الله قالها قبل موته وهو غير شاك فيها أجزاء الله عن ذلك بدخول الجنة كما قال النبي ﷺ فى حديث أبى هريرة : إنهم كانوا مع النبي فى غزوة تبوك وفيه قال رسول الله ﷺ : (أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة) (١) رواه مسلم .

وحديث أبى ذر فى الصحيحين : (ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة) .

* * * * *

(١) رواه مسلم .

الجوهرة العاشرة

باب الدعاء إلى شهادة

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

الجوهرة العاشرة

باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

ذكرنا مسبقاً أن الإنسان لا يعذر في معرفة إله هذا الكون بموجب حجة الله عليه من فطرة وآية الميثاق والآيات الكونية التي يراها ويسمعها وتحيط به في كل حياته، أيضاً الإنسان لا يعذر أبداً بعد مجيء الرسالة السماوية التي توافق فطرته وآية الميثاق وما توصل بها عقله من آيات كونية دالة على وجود إله هذا الكون .

أما بالنسبة لمسألة تصور هذا الإنسان لهذا الإله الذي اعتقد في وجوده فإن تصوره كان قبل مجيء الرسالات السماوية كان تصوراً مشوشاً بأن تصوره بحسب ما اجتهد عقله في الوصول إلى ما تخليه بأن يكون عليه هذا الإله، فكان مجيء الرسالات السماوية تصحيح لهذا التصور المشوش، وهذا أول ما دعت إليه الرسالات السماوية بأن الله واحد لا شريك له وهو كله مجرد عن الماديات التي تصورها فليس شمساً ولا قمراً ولا برقاً ولا نجوماً ولا رعداً ولا كذا ولا كذا بل هو خالق كل ما تصوره وأكبر مما نتخيله وقد ضربنا مسبقاً مثلاً يقرب فهم هذه المسألة .

نفرض أن هناك جماعة جالسة في حجرة هذه الجماعة مكونة من رجال ونساء وأطفال وفي أثناء جلوسهم دق باب الحجرة فأجمعوا الرأي كلهم على أن هناك طارقاً بالباب ولم يختلفوا صغيرهم ولا كبيرهم أذكاهم وغيبهم رجالهم ونساءهم على أن بالباب طارقاً لكن اختلافهم كان في شيء آخر وهو تصورهم لهذا الطارق هل هو كبير أو صغير شاب أو شيخ أو امرأة طويل أو قصير ثمين

أو نحيف؟ إلى آخر تلك التصورات التي اختلفوا فيها، فهل بالله على أى عاقل أن يحاسبهم على تصورهم المشوش؟، هذا بالتأكيد لا يحاسبون بل يعذرون؛ لأن عقولهم قاصرة على تحديد من الباب بالضبط لكنهم غير معذورين فى إنكار أن الباب طارقاً فهم محاسبون على إدراكهم أن هناك طارقاً بالباب وهذا مثال تقريبي لوجود الإله الواحد الأحد فى عصر الفطرة وعصر الرسالة فكان من أول موجبات الرسالة هو دعوة الناس إلى حقيقة إله هذا الكون وفيما اختلفوا فيه من تصور مشوش له سبحانه وتعالى، وهذا ما قام به بالفعل النبى ﷺ فى مكة بأن مكث بها ثلاثة عشر عاماً تقريباً يدعوهم إلى حقيقة لا إله إلا الله دون غيرها من أى عبادة من مستلزمات هذه الحقيقة، أما بعد هجرته ﷺ إلى المدينة فإن موجبات هذه الحقيقة قد تكرر بأن فرضت العبادات الموجبة لحقيقة لا إله إلا الله، حتى أهل الكتاب كان أول موجبات لدعوتهم لهذا الدين وهو دعوتهم لحقيقة لا إله إلا الله محمد رسول الله وتصحيح ما تصوره للإله الحق من تصور مشوش قبل مجيء النبى ﷺ فقد بعث النبى ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له : إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وفى رواية إلى أن يوحدوا الله فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فإن أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب (١) ، من خلال الحديث نخلص إلى نقاط هامة منها :

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد باب ما جاء فى دعاء النبى ﷺ أمته إلى التوحيد ج٤-

- ١- أن الدعوة إلى الله طريق من اتبعه .
 - ٢- التنبه على الإخلاص؛ لأن كثيرا لو دعى إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.
 - ٣- أن البصيرة من الفرائض .
 - ٤- حسن التوحيد أنه تنزيه لله تعالى .
 - ٥- من قبح الشرك كونه مشبه لله .
 - ٦- أهمها إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم ولو لم يشرك .
 - ٧- كون التوحيد أول واجب .
 - ٨- أنه يبدأ به قبل كل شيء حتى الصلاة .
 - ٩- أن معنى أن يوحدوا الله معنى شهادة لا إله إلا الله .
 - ١٠- أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها ويعرفها ولا يعمل بها .
 - ١١- التنبه على التعليم بالتدرج .
 - ١٢- البداية بالأهم فالأهم (١) .
- قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ
وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

ص ٢٧٣ حاشية السندی دار إحياء الكتب العربية، ورواه أيضا مسلم في دعاء النبي ﷺ

أتمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى .

١. أحمد بن تيمية مجموعة التوحيد ص ١٢٣ دار الفكر .

قال أبو جعفر بن جرير يقول الله تعالى ذكره لنبيه ﷺ قل يا محمد : هذه الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العباد له دون الآلهة والأوثان الانتهاء إلى طاعته وترك معصيته (سبيل) طريقتي ودعوتي (أدعو إلى الله) تعالى وحده لا شريك له (على بصيرة) بذلك ويقين علم مني به (أنا) ويدعو إليه على بصيرة أيضا من اتبعني وصدقني وآمن بي سبحانه الله يقول له تعالى ذكره : وقل تنزيها لله تعالى وتعظيما له من أن يكون له شريك في ملكه أو معبود سواه في سلطانه (وما أنا من المشركين) ويقول وأنا برىء من أهل الشرك به لست منهم ولا هم مني ^(١) فهذا دعوة النبي ﷺ

(١) أبو جعفر ابن جرير الطبري / تفسير الطبري ج ٦ م ٢ ص ٥٢ دار الفكر العربي .

قال المصنف رحمه الله في التوحيد وفضله ، وما يوجب الخوف من ضده نبه بهذه الترجمة على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه بل يجب عليه أن يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما هو سبيل المرسلين واتباعهم كما قال الحسن البصري لما تلا قوله تعالى : ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المرسلين ﴾ فقال : هذا حبيب الله ، هذا ولي الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله في دعوته . ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته . وعمل صالحا في إجابته : إنني من المسلمين هذا خليفة الله . ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى في معنى قوله تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ الآية [الإسراء : ١٢٥] ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو : فإنه إما أن يكون طالبا للحق محبا له مؤثرا له على غيره إذا عرفه ، فهذا يدعى بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة أو جدال ، وإما أن يكون مشتغلا بصد الحق . لكن لو عرفه أثره واتبعه ، فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب ، وإما أن يكون معاندا معارضا ، فهذا يجادل بالتي هي أحسن ، فإن رجع وإلا انتقل معها إلى الجدال إن أمكن .

إلى قومه وهو الأسوة الحسنة لهما وهو يدعوهم (إلى حقيقة لا إله إلا الله محمد رسول الله) رغم اختلاف عقولهم وطبائعهم وعاداتهم، فكانت الدعوة لها عدة أساليب منها ما فيه حكمة ومنها ما فيه موعظة حسنة ومنها ما فيها مجادلة حسنة^(١) دون تعصب أو تحيز ، وحالات الدعوة الثلاثة هذه ليست مقصورة على النبي ﷺ بل أمة نبينا ﷺ ونحن منهم إن شاء مطالبون بالالتزام بالدعوة إلى حقيقة لا إله إلا الله محمد رسول الله وما يترتب عليها من التزامات وشروط ، وهذه الأساليب من الدعوة إلى تلك الحقيقة يكون ببصيرة المؤمن التي يحياها الله لعباده المخلصين قال الشيخ سليمان : قلت فتبين وجه المطابقة بين الآية والترجمة قيل : ويظهر ذلك إذا كان قوله ومن تبعني عطفاً على الضمير في ادعو إلى الله ، فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله تعالى وإن كان عطفاً على الضمير المنفصل فهو صريح في أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون من عداهم والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين فأتباعهم هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله)^(٢) .

وقد ركز الشيخ على اتباع سيدنا محمد ﷺ من الذين التزموا بما جاء به ﷺ، أما ما ذكرته من تعميم لأمة النبي ﷺ بأكملها فهذا ما يتمناه المرء من أن نكون جميعاً ممن اتبع هدى النبي ﷺ بكل ما جاء به من شرع حنيف متمثل في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ومن أبرز ممن التزم بما جاء به النبي ﷺ فاستحق بأن يكون من أهل ثقة النبي ﷺ فيهم معاذ بن جبل حيث أرسله إلى اليمن ليدعو أهل الكتاب إلى حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله وما يستلزمها من عبادات وقيام معاذ بن جبل بهذه المهمة كان مستلزماً معرفته

(١) عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ / فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٧٨ .

(٢) سليمان بن عبد الله محمد عبد الوهاب / تيسير العزيز الحميد ص ١٢٣ .

بأساليب الدعوة من حكمة وموعظة حسنة وجدل حسن أيضا إذ إنه لا يخاطب نوعية واحدة من عقول الناس (وفيه أن مخاطبة العالم ليست كمخاطبة الجاهل والتنبية على أنه ينبغي للإنسان أن يكون على بصيرة في دينه ، لنلا يبتلى بمن يورد عليه شبهة من علماء المشركين ، ففيها التنبية على الاحتراز من الشبه والحرص على طلب العلم .

قوله : فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ، وفي رواية - إلى أن يوحدوا الله (هذه الرواية في التوحيد من صحيح البخاري ، وفي بعض الروايات فادعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله وفي بعضها وأن محمدا رسول الله وكثير من الروايات فيها ذكر الدعوة إلى الشهادتين وأشار المصنف رحمه الله بإيراد هذه الرواية إلى التنبية على معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، إذ معناها توحيد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه ، فلذلك جاء الحديث مرة بلفظ شهادة أن لا إله إلا الله ، ومرة إلى أن يوحدوا الله (ومرة (فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات ^(١)) .

ومن هذا يتبين أن النبي ﷺ وأُمَّته مطالبون بالدعوة إلى حقيقة لا إله إلا الله محمد رسول الله لكي يعلمها أغلب الناس بأنها هي المنجية إذا ما عرفوا حقيقتها حقيقة توحيد الألوهية ، فضلا عن معرفتهم بتوحيد الربوبية ، فهذا واجب يجب معرفته والدعوة إليه بعد العمل به والتحلي بالصبر على هذه المهمة التي أمرنا الله به بالدعوة إلى حقيقة الحقائق وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله .

* * * * *

(١) المرجع السابق ص ١٢٦ .

الجوهرة الحادية عشر

شهادة أن محمدا رسول الله

وهل تقبل الشهادة الأولى بدونها؟

ذكرنا سابقا أنه ينبغي على العبد المسلم الذي يتمنى أن ينال رضا ربه أن تعلم ثلاثة أصول وهي ، معرفة الله ، ومعرفة هذا الدين ، ومعرفة النبي ﷺ ، فهذه ثلاثة أصول ينبغي للعبد معرفتها والإيمان بها بخاصة الأصل الثالث وهو الإيمان بأن محمدا رسول الله بعثه الله إلى العالمين وهو الواسطة بين الله سبحانه وتعالى وبين عباده ولا ينبغي لأى مخلوق مهما كان علمه ومهما كانت درجته أن يعلم الأصل الأول ، والأصل الثانى إلا بمعرفته للأصل الثالث ؛ لأن النبي ﷺ هو المخبر عن معرفة الله وما يتحقق من رضاه وما يتقرب إليه من معرفه هذا الدين قال عبد الرحمن بن قاسم الحنبلى :

إننا لا نعرف الأصل الذى هو معرفة الرب ﷻ ، ولا الأصل الثانى الذى هو دين الإسلام إلا بالواسطة بيننا وبين الله فتحتمت معرفته ﷺ وصارت أصلا ثالثا . إذا لا يمكن معرفة المرسل إلا بمعرفة رسوله فصارت من الضروريات معرفة الرسول ﷺ وبذلك ظهر أن معرفته ﷺ أحد الأصول الثلاثة . ومعرفته تتظيم أشياء عديدة : منها معرفة اسمه ونسبه وعمره وبقائه فى الدنيا ووفاته . ومعرفته ما نبئ به . وما أرسل به ، وبلده ، ومعرفة ما بعث به . وغير ذلك (^١) .

(^١) شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب / حاشية الأصول الثلاثة / بقلم عبد الرحمن بن محمد ابن قاسم الحنبلى النجدى / ص ٧٢ .

وأهم شيء معرفة شهادة أن محمدا رسول ﷺ ، فهي تعنى التصديق الجازم بدون شك على الإطلاق بأن محمدا رسول مبعوث من قبل الله فهو عبده ورسوله اصطفاه من خلقه ليكون رسولا ورحمة للعالمين بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله وسراجا منيرا وإلى دينه - الرسالة الخاتمة - دين الإسلام الحنيف فيجب التصديق والإيمان بكل ما جاء به وما أخبر به من مغيبات وحقائق سواء صدقها القول أو لم يصدقها فيجب الامتثال والانقياد لما أمر به والانتفاء عما نهى عنه والتمسك بكل ما جاء به من شرع فإن طاعة الرسول من طاعة الله وإن معصيته من معصية رب العزة الله سبحانه وتعالى قال تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .

وقال أيضا : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٢] .
وقال أيضا : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [النساء : ٦٩] .

وقال أيضا : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ﴾ [المائدة : ٩٢] .
قال أيضا : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] .
وهذه الطاعة التي ألزمتنا بها هي من موجبات الإيمان بالله لأنه هو المبلغ عنه سبحانه ولم يتوفاه الله حتى أتم به الدين وتم به النعمة ورضى لنا الإسلام ديننا - سبحانه رضى الإسلام - ديننا لنا .
قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

فقد ترك أمته ﷺ على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك وعلى ذلك فإن شهادة محمد رسول الله لازمة لزوما لا ينفك أبدا بشهادة لا

إله إلا الله ، لأن شروط شهادة محمد رسول الله فإن العبد لا يدخل في الدين إلا بهاتين الشهادتين .

ولذلك تنطبق الشروط بأكملها على الشهادتين لا انفكاك بينهما أبدا وهذه الشروط تتلخص في :

- ١- العلم بمعناها نفيا وإثباتا .
- ٢- استيقان القلب بمعناها ظاهرا وباطنا .
- ٣- القبول لهما فلا يرد شيئا من لوازمها .
- ٤- الاتقياد لهما ظاهرا وباطنا .
- ٥- الإخلاص فيهما .
- ٦- الصدق من صميم القلب لا باللسان فقط .
- ٧- المحبة لهما ولأهلها .

ولكل من شهد بهما وعمل بموجبهما ؛ لأنه استحق المولاة ومن عادهما استحق البراءة منهم إعلان العداء عليهم يقول حافظ آل حكيم : (إذا علم أنه لا تتم محبة الله ﷻ التي هي من شروط الشهادتين إلا بمحبة ما يحبه وكرهه ما يكرهه فلا طريق إلى معرفة ما يحبه الله تعالى ويرضاه وما يكرهه ويأباه الله تعالى إلا باتباع ما أمر به رسول الله ﷺ واجتناب ما نهى عنه وتصديقه متابعتة؛ ولهذا اقترن محبته بمحبة رسول الله في كثير من المواضع ^(١) من هذه المواضع قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ

(١) حافظ آل حكيم / مختصر معارج القبول ص ١٠٥.

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] ^(١) .

(هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس على الطريقة المحمدية فإنه كذاب)
 فى نفس الأمر حتى يتبع الشرع المسمى والدين النبوى فى جميع أحواله كما ثبت فى
 الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من عمل عملاً ليس فى فعله
 أمرنا فهو رد " ولهذا قال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ أى : يحصل
 لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول كما قال بعض
 العلماء الحكماء : ليس الشأن أن تحب إنما الشأن أن تحب ، وقال الحسن البصرى وغيره
 من السلف : زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ
 تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ . وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا على بن
 محمد الطنافسى حدثنا عبد الله بن موسى بن عبد الأعلى عن عائشة رضى الله عنها
 قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وهل الدين إلا الحب فى الله والبغض فى
 الله ؟ قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ .

ثم قال الله تعالى : ﴿ وَيُغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى : باتباعكم الرسول صلى الله عليه وسلم يحصل لكم هذا من سفارته ثم قال تعالى أمرا لكل أحد من خاص وعام : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَاللَّهُ بَاقٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ فدل على أن مخالفته فى الطريقة كفر والله لا يحب من اتصف بذلك وإن ادعى وزعم فى نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبى الأُمى خاتم ورسول الله إلى جميع التلقين الجن والإمس الذى لو كان الأنبياء بل المرسلين بل أولوا العزم منهم فى زمقه ما وسعهم إلا اتباعه والدخول فى طاعته واتباع شريعته) (بن كثير تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٣٥٨ .

وهذه حجة بالغة على كل من يزعم أنه يحب الله وتغافى في هذا الحب فإن كان صادقا في ادعائه فليتبّع النبي ﷺ بكل ما جاء به دون أى استثناء ؛ لأن طاعة النبي ﷺ دالة على محبته وأن طاعته ومحبته دالتين على محبته ﷺ ، ومن هذا يتحقق أن الشهادتين لا إله إلا الله محمد رسول الله مرتبطتان ببعضهما البعض وما يترتب عليهما من واجبات فإنها واحدة أيضا فلا تقبل الأولى إلا بالثانية ولا تعرف الأولى إلا بموجب معرفتنا وإيماننا بالثانية ؛ ولذلك كانت الشهادة الثانية واجبة كل الوجوب في إيمان أهل الكتاب الذين رفضوا أن يكون النبي ﷺ مبعوثا من العرب وأيضا يجب عند التلطف بالشهادة الثانية الاعتقاد الجازم في أنه ﷺ مبعوث للعالمين لا للعرب خاصة كما يزعم الزاعمون ، فالشهادة محمد رسول الله تعنى الاعتقاد الجازم بأنه رسول للعالمين وبلغ على يديه حقيقة لا إله إلا الله وأنه هو المعبود بحق وحده لا شريك له وبذلك اكتملت الشهادتين وارتبطت ببعضهما البعض الآخر لا إله إلا الله محمد رسول الله .



الجوهرة الثانية عشرة

حكم النطق بالشهادتين

الجوهرة الثانية عشرة

حكم النطق بالشهادتين

إننا لا نستطيع الحكم على أى إنسان بالإسلام ودخوله فى الإيمان إلا بعد مشاهدتنا له بالإقرار بالشهادتين نطقاً لفظياً واضحاً ، ثم تصديق عملى على ما نطق به من الشهادتين قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [النور : ٦٤]

قال رسول الله ﷺ : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله ﷻ " (١)

وعلى ذلك فإن النطق بالشهادتين شرط لازم لدخول الإنسان فى الإسلام لكى يترتب على ذلك إجراء الأحكام بينه وبين المسلمين من زواج والصلاة معه والصلاة عليه إذا مات . وبره بين المسلمين فى قبورهم ، هذا للمستطيع الذى يقدر على النطق بالشهادة ويخرج بذلك الغير قادر مثل الأخرس والمكروه قال تعالى :

﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ [النحل : ١٠٦]

أما الأطفال الذين لا ينطقون بالشهادتين فإن كانوا أبناء المؤمنين فهم مؤمنون ، وأما إذا كانوا أبناء الكافرين ففيهم خلاف .

قال حسن أيوب : الشهادتان هما : (أشهد أن لا إله إلا اله وأشهد أن محمدا رسول الله) .

(١) رواه البخارى فى استتابة المرتدين وقتالهم ، ومسلم فى كتابه الإيمان باب الأمر بقتال الناس ، انظر فتح البارى ج ١٢ ص ٨٨ وشرح النووى ج ١ ص ٢٠١ - ٢١١ .

والنطق بهما شرط لإجراء الأحكام الدنيوية على المسلم، مثل تزويجه مسلمة، والصلاة خلفه، والصلاة عليه إذا مات، ودفنه في مقابر المسلمين . فإذا لم ينطق لعذر كالخرس أو لم يتمكن من النطق بهما بأن مات عقله وإيمانه بقلبه فهو ناج عند الله تعالى، أما إذا استطاع النطق ووجد وقتا كافيا ولم ينطق بالشهادتين : فإن كان عدم النطق عنادا فهو كفر، ولا عبرة بالتصديق القلبي . أما إذا كان عدم النطق لخوفه من الهلاك فالإيمان صحيح لقوله تعالى :

﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل : ١٠٦] .

أما من لم ينطق بالشهادتين لغير سبب من الأسباب، ولكنه مصدق بقلبه ومطمئن إلى دين الله وأحكامه، فالقول الراجح : أنه ناج عند الله وإن كان لا يعامل معاملة المسلمين لعدم العلم بإيمانه، وعدم الدليل عليه، وهذا كله في من يرد الدخول في الإسلام . أما أولاد المؤمنين فهم مؤمنون وإن لم يحصل منهم نطق بالشهادتين إلا إذا ظهر منهم ما يتنافى مع الإيمان ^(١) .

وقد ذكرنا أن الإيمان لا يقتصر على النطق بالشهادتين وحسب بل يشترط عدم طاعة الشيطان والأهواء وعدم الإتيان بكل ما يخالف شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وإذن فالنطق بالشهادتين وحدهما لا يكفي في الدخول في الإيمان . قال حافظ بن أحمد آل حكيم : " أما من قال لا إله إلا الله بلسانه ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية الله وخالفته فقد كذب قوله فعله ونقص من كمال توحيده بقدر معصيته لله ، ومما يشهد لذلك أيضا أن من أخل بشيء من حقوق لا إله إلا الله في الدنيا لا ترتفع عنه العقوبة لمجرد تلفظه بالشهادتين ، فذلك عقوبة الآخرة ، وبيان ذلك أن النبي ﷺ قال : " أمرت أن أقاتل الناس حتى

(١) حسن أيوب / تبسيط العقائد الإسلامية ص ٣٣ دار التراث العربى للطباعة والنشر .

يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ﷺ - رواه البخارى فى باب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم - ففهم عمر وجماعة من الصحابة ﷺ جميعا أن من أتى بالشهادتين امتنع من عقوبة الدنيا بمجرد ذلك فتوقفوا فى قتال مانعى الزكاة وفهم الصديق ﷺ فى نفس الحديث السابق : " فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله " ؛ ولذا رأى قتال مانعى الزكاة والذى فهمه الصديق ، ثبت عن رسول الله ﷺ من رواية ابن عمر وأنس وغيرهما من الصحابة ﷺ .

وذلك أنه ﷺ قال : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة - رواه البخارى فى باب - فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم " ومسلم فى كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وانظر الفتح ج ١ ص ٩٥ وشرح النووى ج ١ ص ٢١٢ .

ودل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥] .

فمن مقتضيات الشهادتين ومن حقوق التوحيد أداء الفرائض ، ولما قرر أبو بكر ﷺ عنه هذا للصحابة رجعوا إلى قوله ورأوه إذا أخل بحق من حقوق الإسلام فكذلك عقوبة الآخرة ، فالذى شرع عقوبة الدنيا هو الذى سيعاقب فى الآخرة ^(١) .
قد اشترط الشرع الحنيف شرط صحة ^(٢) .

(١) حافظ آل حكمى / مختصر معارج القبول ص ١٠٩ .

(٢) شرط الصحة يشترط لصحة الإيمان العقلى واللسانى أمران لا يصح الإيمان العقلى إلا بهما :
١ - ألا توجد قرينة تدل على خلاف ادعاء الإنسان بأن لديه إيمان قلبى أولا وعقلى ثانيا
ولسانى ثالثا مثل القرائن الكفرية مثل أكل الخنزير من غير ضرورة ولا خوف وإظهار -

وهذه قرائن دالة على مصاحبة فاعليها للكفر فيجب على العبد الحيطة وإتيان تلك القرائن ولو على سبيل عدم التعمد حتى لا يأخذ حكم الكفار وإن لم يكن بقلبه كفر ؛ لأن الحكم على الناس يكون من خلال ظاهرهم .

لقد حذر الشرع من الأمور المنافية للإيمان وحكم بكفر من يرتكبها وذلك مثل السجود للصنم اختياراً ، أو الاستهانة والتحقير لما عظمه الدين والقرآن الشريف ، وحديث رسول الله ﷺ ، والشرعية الإسلامية ، ورسول الله والإيمان به ، وأوامره ونواهيه ، والفرائض الدينية كالصلاة أو الحج أو الشتم لواحد مما ذكر ، أو التلفظ بكلمة الكفر أو نحو ذلك فإن هذا كله وأمثاله كفر . كذلك يكفر من كذب شيئاً من النصوص الشرعية الثابتة يقينا كآيات القرآن ، وأحاديث الرسول المتواترة أو استحل حراماً ثبتت حرمة بدليل قطعي ، قتل النفس والزنا والسرقة ، هذا كله مغل بالتصديق الإيماني والالتقياد الإسلامي الواجب توافرها ليكون المرء مؤمناً ومسلماً^(١) .

* * * * *

= زى الكفرة في بلاد المسلمين من غير إكراه عليه ، والسجود لصنم ، وإهانة المصحف ، والسجود لصنم أو للشمس أو للتوجه لغير الله من غير أو رجاء أو توكل وما شابه ذلك فإن ذلك يعد كفراً صريحاً وخروجاً عن دائرة الإيمان .

٢- ألا يحدد أى شيء معلوم من الدين بالضرورة قل أو كثر فإن ذلك يعد كفراً صريحاً وخروجاً عن دائرة الإيمان مثل (جدد الصلاة عمداً) انظر د / جمال محمد سعيد / الاستمساك بالعروة الوثقى بين الكفر والإيمان / بحث منشور ومحكم فى حوالية كلية أصول الدين سنة ١٩٩٨ يناير العدد الثامن عشر طبعة دار الكتب الجامعية الحديثة ص ٢٨٠ .

(١) حسن أيوب / تبسيط العقائد الإسلامية ص ٣٤ .

الجوهرة الثالثة عشرة

تحقيق معنى الشهاداتتين

الجوهرة الثالثة عشرة

تحقيق معنى الشهاداتتين

علمنا من خلال ما ذكرنا مسبقاً أن شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله واجبة على العبد المستطيع نطقها بأن يظهر للآخرين ويلتزم بواجباتها وحققاً كما أمر سبحانه وتعالى ووصى بها رسوله ﷺ في سنته من التزام واستقامة وشهادة لا إله إلا الله ، ذكرنا أنها تحتوى نفى وإثبات نفى لكل ما يعبد من دون الله ، وإثبات الألوهية لله الواحد الأحد والشهادة الثانية هي إثبات الرسالة للنبي ﷺ.

وأنة هو المخبر عن رب العزة بكل ما يضمن للعبد رضا ربه إذا ما التزم بكل ما جاء به النبي ﷺ بقدر طاقة العبد ولكي نحقق معنى الشهاداتتين ينبغي ذكر بعض النقاط على النحو الآتى :-

أولاً : أن الدين الإسلامى يبنى على أصلين اثنين : الأول : عبادة الله عباداً خالصة لوجهه لا يعبد ولا يشرك معه أى أحد ، والثانى : الالتزام بهذه العبادة من خلال ما جاء به النبي ﷺ من شرع ^(١).

ثانياً : أن فى الدين الإسلامى دلائل كثيرة واضحة على أن غاية وجود الإنسان فى هذه الحياة هي العبادة لله الواحد الأحد وهذا هو المقصود من خلقه وهو توحيد الله ﷻ .

(١) يقول ابن تيمية فى قاعدة جلييلة فى التوسل والوسيلة ص ١٦٢ : (ودين الله الذى هو الإسلام مبنى على أصلين : على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً وعلى أن يعبد بما شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وهذان هما حقيقة قولنا : (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله • فالإله هو الذى إله القلوب عبادة واستعانة .

رابعاً : أن الإسلام هو دين الأنبياء جميعاً بما يحتويه من تسليم الوجه لله دون إشراك ودون اتخاذ أى ند لله والآيات القرآنية والأحاديث النبوية أكثرها شاهده على أن الإسلام من لدن آدم وحتى خاتم المرسلين قال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣] ^(١).

خامساً: أن الكلمة السواء الواحدة التى دعى بها النبى ﷺ أهل الكتاب هى كلمة التوحيد وعدم الإشراك بالله لأنه هو المعبود بحق فإذا فعلوا ذلك فقد

(١) قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية : (يقول الله تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل على الكفار من بنى إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له فقال لهم: ﴿ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ وهذا من باب التغليب؛ لأن إسماعيل عمه : قال النحاس : والعرب تسمى العم أبا نقله القرطبي ، وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أبا وحجب به الأخوة كما هو قول الصديق ، حكاه البخارى عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير ثم قال البخارى : ولم يختلف عليه ؛ وإليه ذهب عائشة أم المؤمنين وبه يقول الحسن البصرى وطاوس وعطاء وقال مالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه : إنه يقاسم الأخوة وحكى ذلك عن عمر وعثمان وعلى بن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف واختاره صاحباً أبى حنيفة القاضى أبو يوسف ولتقريرها موضع آخر وقوله : ﴿إلهها واحدا﴾ أى نوحده بالأكوهمية ولا نشرك به شيئاً غيره ، ونحن له مسلمون أى مطيعون خاضعون كما قال تعالى : ﴿وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾ والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم كما قال تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ تفسير ابن كثير / ج ١ ص ١٨٦ .

الزعموا بالدين القيم واستمسكوا بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها قال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ٦٤] ^(١).

سادسا : وجه الله سبحانه وتعالى أمرا للنبيه ﷺ ولأمته سؤالا موجها لمن قبلنا من الذين اتبعوا الأنبياء والرسل السابقين للنبي ﷺ.

- هل اتخذ الله سبحانه وتعالى إلها يعبده خلقه دون سواه ؟، تعالى الله أن يكون فعل ذلك ، وهذا مذكور فى قوله تعالى : ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف : ٤٥] ^(٢).

(١) هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال ههنا ثم وصفها بقوله: ﴿سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أى عدل ونصف نستوى نحن وأنتم فيها ثم فسرنا بقوله: ﴿أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لا وثنا ولا صليبا ولا صنما ولا طاغوتا ولا نارا ولا شيئا بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، هذه دعوة جميع الرسل قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ انظر ابن كثير تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٣٧١ .

(٢) قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية : أى جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد كقوله جلّت عظمتة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ قال مجاهد فى قراءة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدى وابن مسعود رضى الله عنه ، وهذا كله تفسير لا تلاوة والله أعلم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم واسألهم ليلة الإسراء فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جمعوا له واختار ابن جرير الأول والله أعلم . انظر ابن كثير تفسير المصنف ج ٤ ص .

سابقا : لا ينبغي لأى إنسان أن ادعى أن النبى ﷺ أو أى نبى أو رسول ممن كان قبله عليهم جميعا الصلاة والسلام أنهم أمروا الناس بعبادة الأنبياء أو الملائكة ، لأنه لم يحدث ذلك لاستحالته فكيف يأمرهم الناس بالكفر بعد إذ أمرهم بالإسلام إلى جانب عدم ادعاء أى ملك أو أى نبى أو رسول الألوهية لنفسه؟ فحاشاهم أن يفعلوا ذلك أبدا قال تعالى :-

﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٠] ^(١).

ثامنا : ينبغي للعبد الموحد أن يقف على ثلاثة أشياء وهى :-

- ١- معرفة المتوجه إليه المقصود بالعبادة وهو الله .
- ٢- معرفة كيفية التوجه إليه بواسطة العبادة التى شرعها الله ﷻ.
- ٣- ما يترتب على تلك العبادة من نيل رضا الله ومجازاة العبد برضوان الله فى الآخرة وما سيحدث من مغيبات بعد وفاته فهذه ثلاثة أمور مندرجة تحت

^(١) قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية : أى ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله لا نبى مرسل ولا ملك مقرب ﴿ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أى : لا يفعل ذلك إلا من دعا عبادة غير الله ، ومن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر ، والأنبياء إنما يأمرهم بالإيمان وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وقال : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ وقال إخبارا عن الملائكة : ﴿ ومن يقل منهم أتى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ انظر تفسير القرآن العظيم ابن كثير ج ١ ص ٣٧٧ .

غاية خلقه الإنسان وهي العبادة الخالصة له سبحانه وتعالى من توحيد خالص لوجهه ^(١)

إذا كانت العبادة هي الغاية من الخلق وبما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب فإن مادتها غير مادة المعرفة وإن كانت تستلزمها وكذلك لإفراد الله بالعبادة غير توحيده في الاعتقاد وإن كان يستلزمه وذلك يعبر عن إفراد الله بالعبادة : بالتوحيد العملي الإرادي القصدى الطلبى وعن توحيده في الاعتقاد : بالتوحيد العلمى المعرفى المتصل بالخبر والاعتقاد .

وجوب العلم بالتوحيد

إن العلم بالتوحيد لله ﷻ سواء ربوبية أو ألوهية فهو من الأساسيات المقطوع بها ، المنصوص عليها فلا يجهل هذا الأساس إلا كل جاحد جاهل أراد لنفسه الدخول في الكفر بسترة حقيقة واضحة شاء الله أن يظهرها على يد

(١) قال الشاطبى في الموافقات في الجزء الثالث منها : (أنه محتوى من العلوم على ثلاثة

أجناس هي المقصود الأول :

الأول : معرفة المتوجه إليه وهو الله المعبود سبحانه .

الثاني : معرفة كيفية التوجه إليه .

الثالث : معرفة مآل العبد ليخاف الله ويرجوه .

وهذه الأجناس الثلاثة داخلة تحت جنس واحد وهو المقصود عبر عنه قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ فالعبادة هي المطلوب الأول ، غير أنه لا يمكن إلا بمعرفة المعبود إذ المجهول لا يتوجه إليه ولا يقصد لا بعبادة ولا بغيرها . فإذا عرف ومن جملة المعرفة بأنه أمر وناو وطالب للعباد بقيامهم بحقه توجه الطلب ، إلا أنه لا يتأتى دون معرفة كيفية التعبد فجاء بالجنس الثانى ، ولما كانت النفوس من شأنها طلب النتائج والمآلات أتى بالجنس الثالث (انظر الشاطبى للموافقات / دار المعرفة للطباعة والنشر طبعة سنة ١٩٧٥ ج٣ ص ٣٨٠ .

الرسالات السماوية بعد أن كانت مشوشة لدى العقول التي تصورت الله ﷻ في صور مختلفة فالتوحيد وإفراد الله تبارك وتعالى بالوحدانية كما يفرد بالوحدانية في الربوبية وهو الأمر الذي خلق الله من أجله الجن والانس قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

أى ليوحدون توحيد ألوهية وهو صرف العبد أدنى العبادة فما فوقها لله ﷻ من خوف ورجاء ودعاء ونذر وولاء وبارئ كله لوجه الله لا يشرك معه أى أحد من خلقه مهما كانت درجته ومكانته حتى عند الله ﷻ فإنه ﷻ لا يريد إلا عبادة خاصة لوجهه الكريم وتوحيد الربوبية وهو اعتراف العبد بأن ربه خالقه ورازقه ومحبيه وميئته ومتصرف فى جميع شئونه فالتوحيد هو حق الله تعالى على العبد ، وهذا هو المطلوب من كل عبد أن يعلم حقيقة أن هذا العالم له إله واحد لا شريك له ، فالملك كله لله فيجب أن يكون الحمد كله له ؛ لأنه سبحانه يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ، قال تعالى : ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ ﴾ [إبراهيم: ٥٦] .

قال ابن كثير: هذا القرآن بلاغ للناس كقوله تعالى : ﴿ لَنُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ أى هو بلاغ لجميع الخلق من انس وجن كما قال فى أول السورة ﴿ الرِّحَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [إبراهيم : ١] الآية ﴿ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ﴾ أى ليتعظوا به ﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أى يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو ﴿ وَلِيَذْكُرَ أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ ﴾ أى ذوى العقول ^(١) .

(١) ابن كثير ج ٢ ص ٥٤٥ .

وهذا خطاب للعباد من الله ﷻ ليعلموا وحدانية الله بما دل عليه من الحجج والبراهين الدالة على ذلك دلالة واضحة توافق الفطرة وتوافق آية الميثاق التي أخذها الله بنى آدم في عالم الذراري ، وأيضا توافق الآيات الكونية وآيات الأنفس التي تشهد عليها بوحدة الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١-٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] .

قال البغوي : العلم قبل القول والعمل لقول الله ﷻ : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ فبدأ بالعلم والعلوم الشرعية قسمان :- علم الأصول ، وعلم الفروع . أما علم الأصول : فهو معرفة الله ﷻ بالوحدانية والصفات وتصديق الرسل فعلى كل مكلف معرفته ولا يمسح فيها التقليد لظهور آياته ووضوح دلالته قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (١) .

وقد أشار الشيخ البغوي رحمه الله إلى أن العلم يجب تقدمه على القول والمتلفظ بلا إله إلا الله . والعمل الدال المصدق على حقيقة الاعتقاد بلا إله إلا الله ، فالعلم شرط صحة للقول والعمل فلا يعتبران إلا به لأنه أى العلم سابق عليهما . قال الشيخ حافظ آل حكيم بن أحمد آل حكيم : فى شرح شرط العلم كأحد شروط شهادة التوحيد لا إله إلا الله .

الأول : العلم بمعناها المراد منها نفيا وإثباتا المنافي للجهل بذلك قال الله ﷻ : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَظُنُّونَ ﴾ ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا

(١) شرح السنة للبغوي ج ١ ص ٢٨١ .

إله إلا هو العزيز الحكيم ﴿ وقال تعالى : ﴿ قل هل يستوى الذين يعطون والذين لا يعطون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ قال تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وقال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

في الصحيح عن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة " ^(١) فالذى يشهد أن لا إله إلا الله وهو عارفاً بها عاملاً بمتقضاها باطناً وظاهراً حق له عند الله دخول الجنة وهذا بموجب النصوص الشرعية .

أما من نطق بها دون أى معرفة بحقيقتها وبمتقضاها فهو غير نافع عند الله بالاتفاق ، وهذا مثل ما فعلته بعض الفرق الكلامية كفرقة المرجئة التى قالت : بأن التلفظ بالشهادتين ينجى العبد من النار ، مجرد التلفظ فقط فهو مذهب فاسد ولا يثبت للعبد أى إيمان (لأنه يلزم منه تسويغ النفاق والحكم للمنافق بالإسلام الصحيح ، وهذا باطل قطعاً ، وفى هذا الحديث ما يدل على هذا وهو قوله : من شهد فإن الشهادة لا تصح إلا إذا كانت عن علم و يقين وإخلاص وصدق ^(٢) .

فهل يقول هذا من يتصور ما يقول فنقول أولاً هو الذى تقضى كلامه وكذبه بقوله دعاهم إلى ترك عبادة الأوثان فإذا كان لم يقنع منهم بترك عبادة الأوثان تبين أن النطق بها لا ينفع إلا بالعمل بمتقضاها وهو ترك الشرك ثم يقول : وأما دعواه أن الصحابة لم يطلبوا من الأعاجم إلا مجرد هذه الكلمة ولم يعرفوهم بمعناها بهذا قول من لا يعرف بين دين المرسلين ودين المنافقين الذين فى الدرك الأسفل من النار فإن المؤمنين يقولونها والمنافقين يقولونها لكن المؤمنين يقولونها

(١) حافظ آل حكى معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول فى التوحيد ج ١ ص ٣٠٨ جماعة إحياء التراث .

(٢) عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله / فتح المجيد فى شرح كتاب التوحيد ص ٤٠ .

مع معرفة قلوبهم بمعناها وعمل جوارحهم بمقتضاها " والمنافقين يقولونها من غير فهم لمعناها ولا عمل بمقتضاها " .

فمن أعظم المصائب وأكبر الجهل من لا يعرف الفرق بين الصحابة والمنافقين لكن هذا المجادل لا يعرف النفاق ولا يظنه في أهل زماننا بل يظنه في زمان رسول الله وأصحابه وأما زمانه فصلح بعد ذلك وبيا ويح هذا القائل ، وأما إجترأه على الله وما أجهله بقدر علمهم حيث ظن أنهم فضلا عن مسائل الشرك^(١) .

حكم كثير من الناس بجهلهم أن شهادة لا إله إلا الله مجرد ألفاظ تلفظ وتسمع فقط والحق أنها شهادة تتلفظ بعد إدراك وعلم بحقيقتها ويترتب على هذا العلم العمل الخالص لوجه الله ﷻ هذا هو مقتضى حقيقة العلم بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فما أن التوحيد واجب العلم به على كل عبد أيضاً العمل بمقتضى التوحيد واجب أساسى على كل عبد يجب الالتزام به قليلاً كل عبد : ربى الله وحده لا شريك له ثم يستقم .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠]^(٢) .

(١) محمد قطب واقعنا المعاصر ص ٧٩ المكتبة السلفية .

(٢) قال مجاهد وعكرمة والسدى قال : سئل ابن عباس رضى الله عنه أى آية في كتاب الله تبارك وتعالى أرخص ؟ قال قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله وقال الزهري : تلا عمر رضى الله عنه هذه الآية على المنبر ثم قال : استقاموا والله بطاعته ولم يروغوا روغان الثعالب قول على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما ﴿ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ على أداء فرائضه وكذا قال قتادة وقال الحسن : اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة . وقال أبو العالية : ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ أخلصوا له الدين والعمل ، انظر ابن كثير تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٩٩ .

قال عبد الله بن حسن آل الشيخ : اعلم رحمك الله أن العلماء متفقون على أنه يفترض على كل أحد أن يتعلم معنى (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) كما أنهم متفقون على وجوب تعلم ما يجب لله ولرسله وما يجوز وما يمتنع . والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ والآيات التي تأمر العباد بالإيمان وتدبر القرآن ، واتبع ما أنزل الله من نحو آية ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ ومعلوم أن الإيمان بما أمر الله العباد أن يؤمنوا به ويعملوا بمقتضاه : يمتنع حصوله في القلب مع الجهل بمعاني آيات القرآن ومعاني السنة النبوية ، لأن أساس الإيمان : التصديق بالقلب . وهو إنما يكون للمعاني - أما الألفاظ فلا يمكن الإيمان بها ، إذا لم تفهم المعاني التي تدل عليها الألفاظ . وقد ذم الله الذين لا يفقهون آيات كتابه ، ووصفهم لذلك بالكفر والنفاق بمثل قوله : ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ﴾ وقوله : ﴿ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ وقوله : ﴿ لقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ الآية وقوله : ﴿ يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ وقوله : وصف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون وقوله : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ وقوله : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ وقد بالغ الله سبحانه في الأمر بفهم آيات القرآن الحكيم . بنحو : ﴿ لعلمهم يفقهون ﴾ و ﴿ لعلمهم يعقلون ﴾ ومع ذلك ترى كثيرا من الناس يعيشون طول عمرهم إلى الممات جاهلين ، لا يتعلمون معنى الشهاداتتين ولا يعرفون معنى الإيمان والإسلام (بل ولا معنى الرب والخالق) ونحو ذلك مما يتوقف على معرفته النجاة من الخلود في النار ومع ذلك الجهل يحسبون أنهم مؤمنون من أهل السعادة ﴿ أولئك الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم

يحسنون صنعا ﴿ قال تعالى : ﴿ سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون ﴾ فذكر تعالى أنه يجزى الصادف - أى المعرض - عن فهم آياته مطلقا سواء كان مكذبا أو لم يكن سوء العذاب بما كانوا يصدفون ، أى بسبب إعراضهم عن تعلم معانى ما أوجب الله عليهم تعلمه من آيات القرآن . وذلك لأن من لا يفهم ما كلفه الله به من أمور الإيمان لا يمكنه العمل بمقتضاه . فيصبح بالحقيقة رافضا للدين ، متبعيا لهواه وتصير أحكام الله فى حقه حينئذ معطلة فلذلك يستحق فاعل ذلك : العذاب الأليم.



الزوهرة الزامسة عشرة

أقسام التوحيد

الجوهرة الخامسة عشرة

أقسام التوحيد

ذكرنا سابقاً وبصورة مختصرة أن الله واحد أحد يجب توحيده في ربوبية وهذه ثلاثة أقسام يجب توحيد الله من خلالها ولكي نفصل ذلك نقول : أولاً : توحيد الربوبية هو النوع الوحيد الذي يتفق فيه أهل الإيمان وأهل الشرك ، بمعنى أنهم يعترفون بأن خالق السماوات والأرض هو الله ، وخالق الناس هو الله وأن الرازق هو الله وأن المحي والمميت هو الله ﷻ وهذا باعتراف المشركين أنفسهم ، صدقة على ذلك كثير من النصوص القرآنية ولكن اعترافهم بتوحيد الربوبية هذا لا ينجيهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة إذا لم يستجيبوا ولم يدخلوا في دين الله خصوصاً بعد أن أرسل إليهم رسول الله ﷺ ليدعوهم إلى عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد الذي يعترفون به بشرط أن يعرفوا كل العبادة لوجهه الكريم ولكنهم أبوا ورفضوا فاستحقوا عذاب الله وغضبه بكفرهم وعنادهم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (توحيد الربوبية هو إفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير) .

من أدلته قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ مَلَكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [آل عمران : ١٨٩] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ [سبا : ٢٢] .

وهذا قد أقر به المشركون الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿وَكَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] ﴿وَكَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩٠] .

ولم يكن أحد من هؤلاء المشركين ولا غيرهم ممن يقر بالخالق يعتقد أن أحدا من الخلق شارك الله تعالى في خلق السموات والأرض أو غيرهما ، ولا أن للعالم صانعين متكافئين في الصفات والأفعال ، لم ينقل أرباب المقالات الذين جمعوا ما قيل في المال والنحل والآراء والديانات عن أحد من الناس أنه قال بذلك ^(١) .

ثانيا : توحيد الألوهية وهو صرف كل العبادة أدناها وأعلىها لله رب العالمين فلا يشرك في هذه العبادة مهما كانت مكانته عند الله ﷻ ولو كان ملكا أو رسولا لأن توجيه العبادة لله يجب أن تكون خالصة من أدنى شرك سواء خوف أو رجاء أو ولاء معادة وبراء نذر أو ذبح يجب أن يكون كل هذا لله وحده لا شريك له ولوجهه الكريم ، وهذا هو المقصود بتوحيد الألوهية والذي ينجو العبد به من عذاب الله لينال رضاه وجنته

قال ابن تيمية : أما توحيد الألوهية فهو : إفراد الله تعالى بالعبادة بأن يعبد وحده لا شريك غيره من ملك أو رسول أو نبي أو ولي أو شجر أو حجر أو شمس أو قمر أو غير ذلك كائنا من كان .

ومن أثلته قوله تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦] وقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

(١) ابن تيمية : تقريب التتمية ص ١١١ .

فَاعْبُدُونِ ﴿ [الأنبياء: ٢٥] وقوله تعالى : ﴿وَالْهَكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٦٣] .

وهذا النوع قد انكره المشركون الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا آلِهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ [الصافات : ٣٥-٣٦] ومن أجل إنكارهم إياه قاتلهم النبي ﷺ واستباح دماءهم وأموالهم وسبى نساءهم وذرياتهم بإذن الله تعالى وأمره ، ولم يكن إقرارهم بتوحيد الربوبية مخرجا لهم عن الشرك ولا عاصما لدمائهم وأموالهم . وتحقيق هذا النوع أن يعبد الله وحده لا شريك له بشرعه الذي جاءت به رسله كما قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] فمن لم يعبد الله تعالى فهو مستكبر غير موحد ومن عبد غيره فهو مشرك غير موحد ، ومن عبده بما لم يشرعه فهو مبتدع ناقص التوحيد حيث جعل لله تعالى شريكا في التشريع ^(١) .

ثالثا : أما توحيد الاسماء والصفات فهو يقصد بها إثبات أسماء الله وصفاته من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة وعدم إنكار أى صفة وردت فيهما دون تحريف أو تعطيل أو تكيف أو تمثيل فلا ينبغي لأى مخلوق رد اسم أو صفة لله سمي بها نفسه أو وصف بها ذاته كما لا يجب تحديد صفات الله تعالى مثل ما فعلت الأشعرية من تحديدها لصفات الله ﷻ في عشرين صفة ، فهذا مخالف تماما لصريح القرآن الكريم والسنة المطهرة كما لا ينبغي إثبات صفة لله تعالى توهم التمثيل والتشبيه فليس كمثله شئ ؛ لأن الله ليس كمثله شئ وما يجب اعتقاد العبد بالنسبة للصفات ثلاث مراتب :

(١) المرجع السابق ص ١١٣ .

المرتبة الأولى : كمال محض يجب اعتقاد العبد فيه مثل صفة العلم والوحدانية والحياة إلى غير ذلك ^(١) .

والمرتبة الثانية : نقص محض لا يجب اعتقاد العبد فيه أبدا ولا أن ينسب لله ﷻ مثل إقراض الله أو مرضت فلم تعدنى وجعت فلم تطعمنى إلى آخره .

وأما المرتبة الثالثة : فهي كمال محض ولكنه يوهم تشبيهه وللعبد حينئذ وجوب تنزيه الله بأن يجعلها كمالات لمعانى جائزة في حقه ﷻ ، وأما ما دون ذلك في حقه فتصرف فيما لا يجوز عليه ﷻ ، وهذا لا يعنى رد أى نص أو تأويله أو صرفه عن ظاهره يعبر هذا النص صراحة عن الساعة واليد ؛ لأن هذه العبارات صريحة يجب التسليم به وبديعة لها أصل في اللغة التى نزل بها القرآن الكريم وبصورة إجمالية يجب توحيد العبد لله ﷻ فى أسمائه وصفاته بإفراده سبحانه بجميع ما ورد بكتابه الكريم وسنة حبيب المصطفى ﷺ .

(١) ومن الجهل بمكان عد الضحك والعجب من صفات الله سبحانه على المعنى الذى يتخلله المشبهة قال ابن قتيبة : وإنما هما بمعنى أن الشيء حل عنده بمحل ما يعجب منه ، وبمحل ما يضحك منه كما فى مختلف الحديث له . وهذا كلامه مع مذهبه المعروف فى هذا الباب - يعنى فى باب الصفات - على ثلاث مراتب : الأولى : ما ورد من الألفاظ وهو كمال محض ليس للنقائص والأفات فيه حظ فهذا يجب اعتقاده . الثانية : ما ورد وهو نقص محض فهذا ليس لله فيه نصيب فلا يضاف إليه إلا وهو محجوب عنه فى المعنى ضرورة كقوله : عبدى مرضت فلم تعدنى ، وما أشبهه . الثالثة : ما يكون كمالا ولكنه يوهم تشبيهها ، فأما الذى ورد كمالا محضا كالوحدانية والعمل والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر والإحاطة والتقدير والتدبير ، وعدم المثل والنظير فلا كلام فيه ولا توقف ، وأما الذى ورد بالأفات المحضة والنقائص كقوله : من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا وقوله : جعت فلم تطعمنى وعطشت فقد علم المحفوظون .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : أما توحيد الأسماء والصفات فهو أفراد الله تعالى وصفاته وذلك بإثبات ما أثبت الله لنفسه من الأسماء في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل فلا يجوز نفي شيء مما سمي الله به نفسه أو وصف به نفسه لقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الاعراف: ١٨٠] وذلك تعطيل يستلزم تحريف النصوص أو تكذيبها مع وصف الله تعالى بالنقائص والعيوب ، ولا يجوز تسمية الله تعالى أو وصفه بما لم يأت في الكتاب والسنة ، لأن ذلك قول على الله تعالى بلا علم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالنَّبَغَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الاعراف : ٣٣] .

ولا يجوز إثبات اسم أو صفة لله تعالى مع التمثيل لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

ولأن ذلك إشراك بالله تعالى يستلزم تحريف النصوص ، أو تكذيبها مع تنقص الله تعالى بتمثيله بالمخلوق الناقص .

ولا يجوز إثبات اسم أو صفة لله تعالى مع التكييف ، ذلك قول على الله تعالى بلا علم يستلزم الفوضى والتخبط في صفات الله تعالى ، إذ كل واحد يتخيل كيفية معينة غير ما تخيله الآخر ؛ ولأن ذلك محاولة لإدراك ما لا يمكن إدراكه بالعقول ، فإنك مهما قدرت من كيفية فالله أعلى وأعظم ^(١) .

(١) ابن تيمية تقريب التكمية ص ١١٥ .

فهذه ثلاثة أقسام يجب على العبد اعتقادها : وهى توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات . وأهم تلك الأقسام وأخطرهما هو القسم الثانى : وهو توحيد الألوهية إذ بهذا القسم تكون النجاة ؛ لأنه يحقق نقطة الانطلاق ونقطة الانتهاء انطلاق العبد من بداية صراط الله المستقيم ونهاية العبد عند رضا الله على العبد وترجمة هذا الرضا إلى ما يحبه العبد من الدخول فى الجنة والبعد عن النار ورؤية الله ﷻ فى نهاية هذا السبيل .

أولاً : أما بالنسبة لتفصيل توحيد الربوبية فلا يترتب عليه أى نجاة لأن المشركين بإقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم الإسلام حتى يسلموا ويقرروا بتوحيد الألوهية ويلتزموا ، وهذا ما دعتهم إليه الرسل وفاصلتهم عليه وقام جدل شديد بين هؤلاء المشركين وبين رسلهم فى أنهم يعرفون الله ويعترفون بربوبيته ، وهذا بزعمهم ينجيهم ومثلهم مثل إبليس واليهود فإن هذا وهؤلاء اعترفوا بربوبية الله ﷻ بأنه سبحانه خالقهم ومميتهم وأنه سبحانه له العزة وقدره وأن وعده الحق وأنه سيقوم الساعة لمحاسبة الخلق ولكن بكل أسف اعترافاتهم هذه غير منجية لهم ألينة لعدم استجابتهم لله ﷻ وتوحيدهم لله ﷻ بالوحدانية فى العبادة فلا يشرك معه ﷻ لأن إفراد الله بتوحيد الألوهية هو إفراده بالوحدانية فلا يشرك معه أحد فى التوجيه ولا فى التلقى من الله وحده ، والتوجيه إليه وحده بالخضوع والخشوع والانقياد والإنابة والولاء والخوف منه والرجاء إليه .

ثانياً : تفصيل توحيد الألوهية يدور حول ثلاثة جوانب الأولى : هى إفراد الله ﷻ بالوحدانية فى النسك والشعائر ، والثانية : انفراد الله فى الحكم والحاكمة ، والثالثة : للبراءة من المشركين ومعاداة الكافرين بعد إثبات كفرهم بالأدلة الساطعة ، فهذه الجوانب الثلاثة تشكل وحدة واحدة وهى توحيد الألوهية ولها أصل من صريح القرآن الكريم والسنة المطهرة فبالنسبة للجانب الأول وهو

أفراد الله بالوحدانية في الشعائر والنسك طبقا لقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] .

فالشعائر كل الشعائر لله وحده والنسك كل النسك لله وحده لا شريك له في الشعائر لا شريك له ، وأما من توجه بأى من الشعائر لغير الله كان مشركا بالله، ومن أهم الشعائر الصلاة والدعاة والطواف ومن النسك الذبح - النذر - حلق الشعر - والأدلة على ذلك كثيرة من القرآن الكريم منها بالنسبة للصلاة والذبح ﴿فصل لربك واتحر﴾ وبالنسبة للدعاء ﴿وَمَنْ أَضَلَّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥] .

قال ابن كثير : قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يأمره الله تعالى أن يحبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له وهذا كقوله تعالى : ﴿ فصل لربك واتحر ﴾ أى أخلص له صلاتك وذبحك فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيها والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى قال مجاهد في قوله ﴿ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ النسك الذبح في الحج والعمرة وقال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبيرة ﴿ ونسكى ﴾ وقال زبجى وكذا قال السدي والضحاك وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عوف حدثنا أحمد بن خالد عن ابن عباس أن جابر بن عبد الله قال : ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم عيد النحر بكبشين وقال حين ذبحهما : ﴿ وجهى وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيقا وما أنا من المشركين . قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا

أول المسلمين ﴿ وقوله : ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ قال قتادة : أى : من هذه الأمة وهو كما قال : فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام وأصله عبادة الله وحده لا شريك له ^(١) .

أما بالنسبة للجانب الثانى من توحيد الألوهية وخاص بالحكم والحاكمة لله ﷻ فإن الحكم لا يكون إلا لله ﷻ قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف: ٦٧] . وقال تعالى : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٦] .

ومعنى ذلك أن العبد ينبغي أن يعتقد اعتقاداً جازماً فى أى حكم يحكم به مهما كانت القضية التى يحكم فيها ، ومهما كان الموضوع الذى يقضى فيه حتى وإن كان تافهاً فيجب عليه أن يعتقد اعتقاداً جازماً أن ما حكم به وقضى فيه هو لوجه الله سبحانه وتعالى ، أى أن هذا الحكم هو من الله وإلى الله ﷻ .

وإن كان الموضوع قسمة بين أبنائه لأشياء تافهة فإن الحكم أيضاً يكون لوجه الله ﷻ ، هذا من منطلق توحيد الألوهية فإن اعتقد العبد أن حكمة أتى من قبيل العدل أو من قبيل قانون وضعى فيه عدالة مطلقة فإنه قد خرج عما أراده الله من عباده لأن الله ﷻ هو أهل العدل فيما ينبغي لأى مخلوق مهما كان أن يشرك مع عدل الله أى حكم أو أى قانون مهما كان هذا الحكم أو هذا القانون عادلاً .

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] . وقال فى آية أخرى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥] .

وقال: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧] . وقد أتت أواخر الثلاث آيات السابقة مختلفة فيمن لا يقيمون حكم الله بأنهم

(١) ابن كثير تفسير القرآن العظيم / ج ٢ ص ١٩٨ .

كافرون أو ظالمون أو فاسقون ، وهذا في رأى له دلالة معينة خاصة بإطلاق الكفر على من لا يحكم بشرع الله ، فإن هذا الشخص الذى لا يحكم بما أنزل الله لا شك أنه مخالف لله ولأوامره لا نستطيع أن نقول عليه أنه مطيع لله ﷻ بمخالفته شرع الله ، ولكن الله برحمته خفف إطلاق الكفر عليه بأن يكون مثلاً ظالم لنفسه ولغيره فهو من الظالمين أو فاسق بما قام به من مخالفة شرع الله ﷻ، فهذا كله خروج من دائرة الكفر الصريح المخرج من الملة ، وقد ذكر سلفنا الصالح بخصوص هذا الكفر وهذا الظلم أنه كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق ^(١)

فإقامة الحق والعدل هو من أساسيات شرع الله ﷻ ، وقد ذكرت أن العبد لينبغي عليه أن يسلم أحكامه كلها لله ﷻ مهما كان هذا الحكم مستمداً عدله من شرع الله أو من غير شرع الله ، المهم هو الاعتقاد الداخلى فى أن التسليم الحكى هو لله ﷻ ومن قبيل عدل الله ﷻ ؛ لأن الله هو الحق ونحن نتحرى الحق والعدل فى أحكامنا ، وهذا هو اجتهاد العباد فى تحقيق العدالة بشرط أن تكون أحكامها لله ﷻ ولوجهه الكريم .

قال ابن قيم الجوزية : أن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، فإذا ظهرت أمارات الحق وقامت أدلة العدل . . . بأى طريق فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره . . . والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته فى نوع واحد وأبطل غيره من الطرق . . . بل بين ما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل ، وقيام الناس بالقسط فأى طريق استخرج بها الحق ،

(١) قال محمد بن نصر : حدثنا سفيان بن عيينة . عن هشام بن جبير عن طاوس ، عن عباس : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ليس بالكفر الذى يذهبون إليه انظر الإيمان / تقي الدين أحمد بن تيمية / طبعة المكتب الإسلامى .

ومعرفة العدل ، وجب الحكم بموجبها ومقتضاها ، والطرق أسباب ووسائل لا تتراد لذواتها ، وإنما المراد غايتها التي هي المقاصد . . . ولا نقول أن السياسة العادلة مخالفة للشرعية الكاملة ، بل هي جزء من أجزائها ، وباب من أبوابها ، وتسميتها سياسة أمر اصطلاحى ، فإذا كانت عدلا فهي من الشرع ^(١) .

وهذا مخالف لما يظنه كثير من الناس عن الحاكمية فليقتصرها على شخص بعينه بحجة أنه خليفة الله فهو يحكم باسم الله ﷻ لأنه خليفته وهذا الزعم باطل من وجهة نظرى ؛ لأن الخليفة لا يكون إلا لشخص ميت والله ﷻ حي قيوم على هذا العالم ؛ ولذلك نهى أبو بكر ﷺ من دعاه بخليفة الله وقال : لست خليفة الله ولكنى خليفة رسول الله ﷺ لأن الاستخلاف لا يكون إلا فى حق الغائب ، أما الحاضر فلا ، فقد استند الذين قالوا بأن الحاكم ظل الله وخليفة الله فى أرضه إلى حديث يقول : " إن السلطان ظل الله فى الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه العذر وعلى الرعية الصبر " ^(٢) .

ودلالة الحديث ليست كما فهمها الحاكمين بل دلالة الحديث تدل على أن الحاكم تنصب وجهاته وتتجسد فى إقامة العدل ومنع الظلم وذلك من شرع الله والاستناد إليه فى أن السلطان هذا ليس هو الحاكم السياسى وحسب بل إن السلطان هو كل إنسان مهما كانت وراءهم لتلك الصكوك وهذه المزاعم كلها فاسدة لما اعتقدوه فى سلطة الحاكمية ^(٣)

(١) د . محمد عمارة / أعلام الموقعين ص ٣ طبعة دار الشروق .

(٢) رواه البيهقى وابن ماجه والبخارى .

(٣) يفهم بعض الناس من كلمة الحكم التى ورد بها القرآن الكريم والتى اشتقوا منها كلمة أن الحاكمية أن المقصود بها السلطة السياسية العليا فى الدولة أو نظام الدولة السياسى وأن هذه السلطة أو هذا النظام هو لله وحده ، وأن سلطة الحاكم فى الدولة الإسلامية يجب -

هذا من زعمهم في جانب التشريع فلا ينبغي لأى مخلوق مهما كانت مكانته أن يشرع ؛ لأن التشريع هو من خصوصيات الألوهية ومحذور انتحال البشر لحق التشريع ومنازعة صاحب السلطة سلطانه قال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] .

وقال تعالى ذمًا لليهود وما كانوا عليه من اليهود والنصارى باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله يشرعون لهم من دون الله قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] .

أما الجانب الثالث : وهو أساسيات توحيد الألوهية وهو الولاء للمؤمنين والبراء من المشركين والكافرين ؛ لأن هذا الاعتقاد ترجمة عملية يجب إخراجها على شكل سلوك يراه الآخرون من إظهار الولاء والحب والمسالمة لأهل الله الذين التزموا واعتقدوا في توحيد الربوبية ، والبراء من المشركين الكافرين الذين لم يرتضوا الإسلام دينًا أو الذين اعتقدوا فقط في توحيد الربوبية مثل إبليس واليهود ولم يلتزموا بتوحيد الألوهية وكل هؤلاء يجب البراء منهم ومعاداتهم ؛ لأن هذه البراءة والمعاداة قربة إلى الله ﷻ يجب فعلها لننال رضى الله سبحانه وتعالى . قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَخَدَهُ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

- أن تكون مستمدة من الله تعالى ، وعلى ذلك فالحاكم هو ظل الله تعالى فى أرضه وحين يحكم فإنما يحكم نيابة عن الله ، أو بمعنى آخر : فإنما يحكم بالحق الإلهى كما يقول الشيعة فى إمامهم أو كما يقول رجال الدين الكنسى فى أوربا . يرتب هؤلاء على نظريتهم وذكرهم فى السياسة : الحكم بفكر من يجعل مصدر السياسة والحكم لغير الله تعالى • وهى نظرية خاطئة فى نظرنا - لما يترتب عليه من الانتهاء بالحكم والسلطة الى حكم الفرد وسلب الأمة حقها فى تولية الحاكم .

فبالفطرة السليمة المؤيدة بالنقل الصحيح لا يعنى البراءة من الشرك ونترك المشركين الذين يصنعون هذا الشرك ويؤيدونه ويرضون به وأيضا لا يكفى البراءة من الكفر دون البراءة من صانعيه والذين رضوا به وهم الكافرون قال تعالى : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ ﴾ [الصافات : ٩٥] .

وقال تعالى : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [يوسف : ٤٠] .

وهؤلاء المشركون الكفرة قد ارتضوا بالكفر والشرك لهم ديننا من دين الحق فكيف نواليهم ؟ بل الأولى أن نتبرا منهم ومن كفرهم وشركهم لأن الشرع يحذر المؤمنين من موالاة الكافرين ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

بل إن الله سبحانه وتعالى يجعل موالاة الكافرين المشركين وعدم البراءة منهم كفر مخرج من الملة ، بمعنى أن نصير والياد بالله منهم كما قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١] .

وقد جعل الإسلام الحنيف الولاية والولاء للمؤمنين بعضهم لبعض دون غيرهم قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : ٧١] . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

وهذه الموالاة بين المؤمنين أتت من منطلق ولاية الله لعباده المؤمنين قال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

فهذه موالاة للمؤمنين من الله ﷻ ومقابلها معاداة المشركين الكافرين الذين ارتضوا الكفر والشرك قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ [محمد : ١١] .

وقد أعلن الله سبحانه وتعالى عن هذه الموالاة والمعاداة بالبراءة من المشركين ورسوله والمؤمنين ومن شركهم ، ومقابل ذلك يجب أن تكون بين المؤمنين موالاة لبعضهم البعض من الحب والعطف والرحمة قال تعالى : ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : ٣] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [المتحنة : ١] .

وفي الأحاديث النبوية إشارات واضحة عن وجوب إظهار الولاء للمؤمنين والبراءة من المشركين ويظهر الولاء في صورة حب المؤمن للمؤمن ويظهر البراءة في صورة كره الكافر والمشرك ومن المؤمن .

روى أبو ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أفضل الأعمال : الحب في الله والبغض في الله " (١) .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن البراء بن عازب قال ﷺ : " إن أوثق عرى الإسلام أن تحب في الله وتبغض في الله ﷻ وروى عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : " الشرك في هذه الأمة أخفى

(١) رواه أبو داود .

من ديبب النمل وأذناه أن تحب على شيء من الجور وتبغض على شيء من العدل وهل الدين إلا الحب والبغض" (١) .

ولكن هناك نصوصا صريحة دلالتها الظاهرية تدل على معارضتها لما ذكرناه مسبقا من النصوص القرآنية والنبوية السالفة الذكر من أمثال تلك النصوص مصاحبة الابن لوالديه وإن كانوا كفارا .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان : ١٥] .

فهذه مصاحبة بالمعروف بين الأنبياء المؤمنين وآبائهم الكافرين وهذا لا يتعارض مع الود الذي أمرنا به سبحانه وتعالى بعدم وجوده بين المؤمنين والكافرين ، والفرق واضح بين الود والمصاحبة بالمعروف ، فالود منبعه الحب ، أما المصاحبة بالمعروف ، فمن الممكن أن تكون فيها عاطفة الحب وإما أن تقدم تلك العاطفة وتبقى الصحبة بالمعروف وأيضا من أمثلة بر ومعاملة المشركين بالعدل قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة : ٨-٩] .

لأن الله ذكر في آية أخرى ﴿ فَإِنْ اعْتَذَرُواكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٩٠] .

فالفصل بيننا وبينهم بالنسبة للولاء والبراء والموالة والمعاداة هو حالة السلم بيننا وبينهم أو الحرب ، فالذي يواليهم من المؤمنين في حالة الحرب يكون غير

(١) رواه أبو داود .

موحد للألوهية وبأخذ حكم الكفر عليهم بأن يصير منهم وهذا هو الذي نهانا الشرع عنه من موالاتهم في حالة الحرب ، وأيضا هناك حالة أخرى يحرم على المؤمن موالاته الكافر ، وهي حالة الدين فلا يوالى المؤمن الكافر في دينه قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٠٠] .

فحكم الكفر يطلق على المؤمن الذي يوالى الله ﷻ وصريح القرآن عن موالاتهم في كفرهم وشركهم كأنه من يفعل ذلك يصير منهم وما عدا هذا يكون الأمن من الشرع الحنيف بمصاحبتهم بالمعروف وبرهم وإقامة القسط بيننا وبينهم، وهذا مذكور من خلال آيات كثيرة قرآنية وأحاديث نبوية فيالنسبة للآيات القرآنية قد ذكرنا بعضها " .

أما بالنسبة للأحاديث الشريفة قال النبي ﷺ : من ظلم معاهدا أو انتقضه أو كلفه فوق طاقتة أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة " (١) .

كل هذه الآيات وبعض الأحاديث النبوية تدل دلالة واضحة على أن الولاء والموالات يكونان أبدا في حالة الدين والحرب ، ما عدا ذلك من المعاملات العادية مثل البيع والشراء والطعام عند أهل الكتاب والنكاح منهم في بعض الأحوال قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَئِمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لِلْيَوْمِ أَجَلٌ لَّكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ وَالْمُخَصَّنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُخَصَّنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥] .

(١) رواه أبو داود .

فهذه أحوال مختلفة يجوز للمؤمن أن يود أهل الكتاب من خلالها بشرط لا يكون فيها ود في الدين ولا في الحرب .

قال الدكتور عبد الرحمن المراكبي :

كل ذلك وغيره يدل دلالة واضحة على أن المقصود من الولاء المنهى عنه والبراءة المأمور بها هو :

١- الحب على الكفر .

٢- الكره على الإيمان أما فيما يتعلق بجانب الدين دون غيره من المنافع والمصالح المشتركة أو المتبادلة بين المسلمين وغير المسلمين ، أما ما ورد غير ذلك فهو محمول على حالة الحرب دون غيرها حتى قال ابن الوزير : بل يصح أن يحب المسلم غير المسلم لخصلة خير هي فيه لا لكره وبهذا تدل أن التعامل مع غير المسلمين مالم يكونوا حربا على الإسلام والمسلمين هو أمر قد أباحه الإسلام ما دامت فيه مصلحة المسلمين ولا حرج في ذلك عليهم وليس شيء منه من الولاء منه أو البراء المأمور به ^(١) .

شبهة النسخ والرد عليها

ذهب البعض إلى أن آيات مولاة المشركين آيات منسوخة مع إبقاء آيات النسخ الخاصة بتحريم موالاتهم وودهم ، وهذا الرأي غير مستقيم لعدة اعتبارات: أولا : أن آيات التحريم الخاصة بعدم ود المشركين والبراءة منهم ومعاداتهم آيات عامة مطلقة أما آيات الموالات لهم من بر وقسط فحالات خاصة مقيدة ، ومن المعروف أصوليا أن المقيد الخاص يقدم على المطلق العام .

(١) عبد الرحمن المراكبي / قضية التكفير من ١٣٠ .

ثانياً : أن آيات ود المشركين من المؤمنين قد نزلت بعد آيات البراءة منهم وتحريم ودهم وموالاتهم من البديهي أن تكون الآيات المنسوخة مقدمة نزولها على آيات تحريم الود وهي الناسخة .

فآيات التحريم نزلت أولاً ثم نزل بعدها آيات ود المشركين في كل الأحوال ما عدا حالتى الحرب والدين .

ثالثاً : أن الآيات التي نزلت تحت المؤمنين على ود المشركين لا تشير من قريب ولا من بعيد على ودهم في الدين والحرب .

رابعاً : أن آيات الود لا تشير من قريب أو من بعيد على أن المؤمنين يحبوا الكفر والكافرين والشرك والمشركين .

خامساً : أن آيات الود لا تشير أيضاً من قريب أو من بعيد على أن نوالى المشركين في حالة الحرب بل على العكس تماماً فقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نأخذهم ونقتلهم في عدم مسالماتهم لنا .

سادساً : أن هناك آيات صريحة وسلوك عملي من النبي ﷺ على معاملة أهل الكتاب في كثير من الأحوال مثل أكل طعامهم وذبائحهم والنكاح منهم إلى غير ذلك من أمور البيع والشراء .

سابعاً : أن النبي ﷺ قد ضرب لنا المثل الأعلى في وضع العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب باعتبارهم أهل ذمة لهم ما لنا وعليهم ما علينا بكتابة العهود والمواثيق بيننا وبينهم فيعيش الجميع في سلام لكن إذا نقضوا هذه المواثيق فيكون موالاتهم كفر وشرك . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَكَفَّرُوا بِآيَاتِنَا مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَكْتَهُونَ ﴾ [التوبة : ١٢] .

ونحن نذكر دخول قبيلة خزاعة في حلف مع رسول الله ﷺ قبل إسلامهم وكان ذلك في العام السادس للهجرة ، حيث صلح الحديبية وعندما اعتدت قريش على خزاعة اعتبر النبي ﷺ ذلك نقضا من المشركين لعهدهم وتم قتالهم على ذلك في فتح مكة في العام الثامن للهجرة .

ثامنا : أن الناظر في آيات نزول أول سورة الممتحنة وهو خاص بموالة حاطب بن أبي بلتعة للمشركين في حالة الحرب ، وكان مسلما قد نقل إليهم أخبار المسلمين ووالى أعداء المسلمين وهو مسلم ثم رجع عن ذلك واعتذر إلى النبي ﷺ فلم يخرج لا بنص قرآني ولا بحديث نبوي صحيح عن دائرة الإسلام ونزل فيه قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [الممتحنة : ١] .

قال ابن القيم : إن أهل مكة الذين صالحهم النبي ﷺ يوم صلح الحديبية لما نقضوا العهد سار إليهم وكتب مسيره ودعا الله أن يكتم خبره عنهم ولما كتب إليهم حاطب بن أبي بلتعة بخبره أنزل الله فيه ما أنزل ولم يفاجأ أهل مكة إلا برسول الله ﷺ وجنود الله قد نزلوا بساحاتهم وهذا كان عام ثمان قبل نزول براءة^(١) .

تاسعا : من محاسن الشريعة الإسلامية أنها شرعت للمسلم أن يرث الكافر ، وهذا من باب العتق فيجرى مجرى المعارضة ، ولهذا يرث به المولى المعتقد دون العتيق عوضا عن إحسانه إليه بالعتق ، وهذا من العبد والأمة من أهل الذمة دون العبد الكافر المحارب .

قال ابن قيم الجوزية : قال ﷺ : " لا يرث الكافر المسلم لأنه حربى والمناصرة بينهم منقطعة ، فإنهم عدو للمسلمين ، والميراث لا يكون مع العداوة الظاهرة بل مع المناصرة الظاهرة ، وأهل الذمة ليسوا عدوا محاربا ، وقتيلهم

(١) ابن قيم الجوزية أحكام أهل الذمة دار العلم للملايين ج ٢ ص ٤٨٥ .

مضمون ، فإفذا ورث المسلم منهم كان هفذا موففا للأصول و قوله الكافر أفرء به الكافر المطلق وهو المعافى المحارب لم ففدل ففه المنافق ولا المرتء ولا الءمى فإفذا كان المؤمن فرث المنافق لكون مسالم له مناصرا له فف الظاهر فكذلك الءمى، وبعض المنافقفن شر من بعض أهل الءمة .

وقء ذهب بعضهم إلى أنه فرث المسلم الكافر بالموالة ، وهو أءء القولفن فف مذهب أءمء : نص علفه فف روافة الجماعة : وأبى طالس والمروءى والفصل بن زفاء فف المسلم فعق العفء النصرانى ثم فموت العففق : فرثه بولاء اءءجوا بقوله ﷺ : " الولاء لمن أءق " ، قال المانعون من التورفث : له علفه ولكن لا فرث به .

قال المورءون : ففبوت الولاء ففقتضى ففبوت حكمة ، وقال عفء الله بن وهب ءءثنا مءمء بن عمرو عن ابن جرفق عن أبى الزفر عن ءابر ؓ قال : لا فرث المسلم النصرانى إلا أن فكون عفءه أو أمته قالوا وهو إءماع الصءابة أففى به على وعفء الله بن عرم، فروى أبو بكر بأسناءه عن الءارء عن على رضى الله عنه لا فرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم إلا أن فكون عفءا له أو أمته ^(١) .

عاشرا : أن المعاملة بفن المسلمفن وبفن أهل الءمة من الففوء والنصارى كانت معاملة حسنة ضرب النبى للمسلمفن ففها المءل الأعلى ففء كانت هناك معاملة بفنه وبفن أءء الففوء من رهن ءرعه عنءه وأفضا استعار سلاءا من صفوان بن أمفة وهو مشرك كما أءر ﷺ أءء الصءابة بالمءاواة عنء أءء المشركفن وهو الءارء بن كلاء العففى .

قال الءكءور عفء الرحمن المراكبى : " معاملة النبى ﷺ لغيره من أهل الكءاب والمشركن أنه كان فقترض من الففوء بل ماء وءرعه مرهونة عنء

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٧٢ .

يهودى فى طعام لأهله واستعار سلاحا من صفوان بن أمية وهو مشرك ليحارب به هوازن بعد فتح مكة ، أمر سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه أن يتداوى عند الحارث بن كلة الثقفى وهو مشرك " (٢) .

خلاصة القول : أن توحيد الألوهية هو الاتجاه إلى المولى ﷻ بكل مشاعر وأحاسيس وجوارح العبد لا يشرك فى تلك العبادة معها أى مخلوق كائن ما كان ، فالعبادة تكون موجهة لله ﷻ أدناها وأعلىها وتوحيد الألوهية هو طلب الله سبحانه من عبده ، وتشتمل على توحيد الألوهية وعلى توحيد الربوبية دون العكس ؛ لأن توحيد الربوبية هو طلب العبد من ربه بأن ينعم عليه ويرزقه بعد أن شاء الله ﷻ بأن يبيجاده فى هذه الحياة وهو الذى يميته بحكمته فهذا صنيع الله لعباده ولم يطلب الله سبحانه من العبد سوى توجهه إليه بخالص العبادة دون شرك لا يرضى الله عنه ، وإن قل وحقر ، فالله يريد عبادة خالصة لوجهه الكريم دون أى شائبة تشين تلك العبادة .

وتوحيد الألوهية كما ذكرنا مسبقا له ثلاث جوانب :

أولها : أن يتوجه العبد بالشعائر والنسك إلى الله ﷻ .

ثانيها : أن يكون الحكم لله وحده دون أى شريك بحيث يتحرى العبد العدالة فى أحكامه على من دونه وتكون تلك العدالة يعتقد فيها أنها عدالة الله ومن شرع الله وإذا عجز العبد فى إدراك تلك العدالة فإنه يلتمسها عند أولى الأمر الذين يطيعون الله ويطيعون الرسول ولا يحيدون عما أمر به الله ﷻ أو نهيا عنه وإن لم يحكم العبد بشرع الله فإن ذلك يترتب عليه أن يكون فيها خصلنة من كفر أو ظلم أو فسق وإن كان دون الكفر الصريح المخرج من الملة إلا أنه كفر يعاقب عليه الإنسان ويحاسب ولا تنتظر على مخالفته لشرع الله جزاء أو شكورا فلا

(٢) عبد الرحمن المراكبى / قضية التكفير ص ١٣٠ .

نقول : إن مخالفتنا لشرع الله هو كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق فلا يحاسب عليه العبد .

وثالثها : من توحيد الألوهية الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين والبراء من الكفر والشرك وأصحابه بل البراء لا يكفي فإن القرية التي يجب اتباعها لله ﷻ أن نعلن العداء للكفر وأصحابه بل البراء لا يكفي فإن القوة التي يجب اتباعها لله ﷻ أن نعلن العداء للكفر وأصحابه وللشرك وصانعيه والراضين به ، فهذه الجوانب الثلاثة تشكل وحدة واحدة من توحيد الألوهية التي يجب أن نعبر عنها عما نتلفظ به دوماً ليل نهار من قولنا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فنحن نقولها ونتلفظ بها دون عبارة لا رب إلا الله فالمطلوب من العبد توحيد ألوهية لا توحيد ربوبية .

ثالثاً : تفصيل توحيد الأسماء والصفات

وصف الله ﷻ بكثير من الصفات وسمى نفسه بكثير من الأسماء وهذا على لسان رسله الذين أرسلهم للخلق أو للبشر ، وتلك الصفات إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل ، كما جمع الله تعالى بينهما في قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

قال ابن تيمية : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ نفى متضمن لكمال صفاته مبطل لمنهج أهل التمثيل ، وقوله : وهو السميع البصير إثبات لأسمائه وصفاته وإبطال لمنهج أهل التحريف والتعطيل ، فثبت ما أثبتته الله لنفسه ونفى ما نفى الله عن نفسه من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل وهذا هو المنهج السليم الواجب المبني على العلم والحكمة والسداد في القول والاعتقاد [الشورى: ١١] .

وهناك دليلان على هذا المنهج هو المنهج السلفي الذي اتبعه صحابة رسول الله ﷺ كما فهموا ذلك عن النبي ﷺ . وأحد تلك الدليلين نقلى سمع من آيات القرآن الكريم والنص صريح في تنزيه صفات الله ﷻ عن التعطيل أو التشبيه مثبتة إياها بحجج المعطلين الذين عطلوا صفات الله بحجة تنزيه الله ﷻ عن التشبيه ، والدليل الثاني عقلي مبنى على أن العقل مقصور على إدراك الأمور السمعية المغيبة وخصوصا المتعلق بأسماء الله وصفاته فيجب للعقل التسليم بالخبر المنقول من الشرع ؛ لأن العقل يفهم النص بقدر استطاعته والنقل يحكم العقل من شططه وخوضه في الأمور التي لا يطيقها ، قال ابن تيمية : " هناك دليلان : أثرى ، ونظري وإن شئت فقل : سمعى ، وعقلي ، الأثرى السمعى فمنه قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] وقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] وقوله : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٧٤] .

أما النظري العقلي فلأن القول في أسماء الله وصفاته من باب الخبر المحض الذي لا يمكن للعقل إدراك تفاصيله فوجب الوقوف فيه على ما جاء به السمع ^(١) .

وقد عبر علماؤنا عن مذهب السلف الصالح في الأسماء والصفات بعدة تعبيرات أنه مذهب الفرقة الناجية ، ومذهب أهل السنة وسنة الاعتقاد وهي جميعها تعبر عن مجموعة المعتقدات التي التزمها أهل الحق والعلم عن رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين والأئمة المهديين وخالفهم فيها سائر الفرق المبتدعة

(١) المرجع السابق ص ١٩ .

وأهل الأهواء من خوارج ومرجئة ومعتزلة وقدرية وجهمية وشيعية ومتأخرى الأشاعرة من الذين حددوا صفات الله ﷻ من خلال عشرين صفة .

قال ابن تيمية : هذا هو النوع من التوحيد الذى كثر فيه الخوض بين أهل القبلة فانقسموا فى النصوص الواردة إلى ستة أقسام :

القسم الأول : من أجروها على ظاهرها اللاتق بالله تعالى من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكليف ، وهؤلاء هم السلف وهذا هو الصواب المقطوع به لدلالة الكتاب والسنة والعقل والإجماع السابق عليه دلالة قطعية .

القسم الثانى : من أجروها على ظاهرها ، لكن جعلوها من جنس صفات المخلوقين ، وهؤلاء هم الممثلة ومذهبهم باطل بالكتاب والسنة والعقل وإنكار السلف .

القسم الثالث : من أجروها على خلاف ظاهرها وعينوا لها معانى بعقولهم وحرفوا من أجلها النصوص .

القسم الرابع : من قالوا الله أعلم بما أراد به فوضوا علم معانيها إلى الله وحده .

القسم الخامس : من قالوا يجوز أن يكون المراد بهذه النصوص إثبات صفة تليق بالله تعالى وأن لا يكون المراد ذلك وهؤلاء من الفقهاء وغيرهم .

القسم السادس : من أعرضوا بقلوبهم وأمسكوا بالسنتهم عن هذا كله واقتصروا على قراءة النصوص ولم يقولوا فيها بشيء ، وهذه الأقسام سوى الأول باطلة كما قد تبين فى غير هذا الموضع ^(١) .

(١) المرجع السابق ص ١١٨ .

وهنا يكون التساؤل عن سبب إبطال هذه الفرق السابقة عدى الأولى وأبسط ما يقال عن ذلك أن الاختصار على تحديد الصفات في النفي والمحض هو تعطيل محض ، وأيضاً تحديد الصفات على الإثبات المحض ترتب عليه مشاركة غيره معه تعالى عما نقول ، ولكن الأصح هو الجمع بين النفي والإثبات وكلاهما يعبران عن حقيقة التوحيد .

قال ابن تيمية : الجمع بين النفي والإثبات في باب الصفات هو حقيقة التوحيد فيه ؛ وذلك لأن التوحيد مصدر وحد يوحد ولا يمكن صدق حقيقته إلا بنفي وإثبات ؛ لأن الاختصار على النفي المحض تعطيل محض والاختصار على الإثبات المحض لا يمنع المشاركة .

مثال ذلك لو قلت : ما زيد بشجاع ، فقد نفيت عنه صفة الشجاعة وعطلته منها ولو قلت : زيد شجاع ، فقد أثبت له صفة الشجاعة لكن ذلك لا يمنع أن يكون غيره شجاعاً أيضاً ، ولو قلت : لا شجاع إلا زيد فقد أثبت له صفة الشجاعة ونفيت أن يشاركه غيره فيها فكنت موحداً له في صفة الشجاعة ، إذن لا يمكن توحيد أحد بشيء إلا بالجمع بين النفي والإثبات واعلم أن الصفات الثبوتية التي وصف الله بها نفسه كلها صفات كمال والغالب فيها التفصيل لأنه كلما كثر الإخبار عنها وتنوعت دلالتها ظهر من كمال الموصوف بها ما لم يكن معلوماً من قبل ؛ ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر من الصفات المنفية التي نفاها الله عن نفسه .

وأما الصفات المنفية التي نفاها الله عن نفسه فكلها صفات نقص ولا تليق بها كالعجز والتعب والظلم ومماثلة المخلوقين والغالب فيها الإجمال ؛ لأن ذلك أبلغ في تعظيم الموصوف (١) .

(١) المرجع السابق ص ٢٠ .

فسلفنا الصالح قد جمع بين النفي والإثبات في صفات الله من خلال قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

وهذا ما فهموه عن النبي ﷺ من أي مبحث الأسماء والصفات هي من صفة الاعتقاد ، فكل شيء أصل وسنن حتى الاعتقاد الذي له أصل وسنن ، فأصل الاعتقاد هو توحيد الربوبية والألوهية وسننه هو الإيمان بالأسماء والصفات ، وهذا يجيبنا على تساؤل كان يرادني كثيرا من أننا لا نجد عالما يكفر أصحاب الفرق الكلامية في زينهم وما أدلوا به في أسماء الله وصفاته ، والإجابة عن ذلك واضحة لأن مبحث الأسماء والصفات يعد من سنن الاعتقاد ، فالعبد يؤمن بها جملة وعلى الغيب سالكا بذلك سنة سلفنا الصالح في إيمانهم بأسماء الله وصفاته كما فهموها عن النبي ﷺ ونحن نذكر ما قام به أبو حامد الغزالي من تكفيره للفلاسفة الإسلاميين الذين قالوا بعدم قدم العالم وعدم علم الله بالجزئيات ؛ وقالوا بالحشر الروحاني دون الجسماني ، فتكفير أهل البدع المستحدثون في الدين أمر وارد في البيئة الإسلامية لمن سولت له نفسه بالزيغ في الدين ، أما مبحث الأسماء والصفات فكما ذكرنا هو من سنن الاعتقاد ، ولذلك لم يكفر الشرع العامة من المسلمين من تفصيل العلم بأسماء الله وصفاته لأنها من سنن الاعتقاد .

قال ابن تيمية : اعلم أن السنة طريق رسول الله والتسنن بسلوكها وإصابتها وهي أقسام ثلاثة : أو قال : أعمال وعقائد فالأقوال : نحو الأذكار والتسبيحات والأفعال نحو : مثل سنن الصلاة والصيام والصدقات ونحو السير والآداب المحكية ، فهذان القسمان في عداد التأكيد والاستحباب واكتساب الأجر والثواب .
والقسم الثالث : سنة الاعتقاد وهي من الإيمان إحدى القواعد وليعلم المستن أن سنة العقائد على ثلاثة أضرب : ضرب يتعلق بأسماء الله وذاته ، وضرب

يتعلق برسول الله ﷺ وصحبه ومعجزاته ، وضرب يتعلق بأهل الإسلام في أولاهم وأخراهم .

أما الضرب الأول : فلنعتمد أن لله أسماء وصفات قديمة غير مخلوقة جاء بها كتابه ، وأخبر بها رسوله أصحابه فيما رواه الثقات وصحح النقاد الإثبات^(١). فكل ما يتعلق بأسماء الله وصفاته هما من قبيل إثبات وجود وإقرار لا إثبات كيفية كما قال الإمام مالك لمن سأل عن الاستواء عن العرش : الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وأمر بإخراجه من المسجد ، وفي رواية أخرى أجاب الإمام مالك بن أنس لما سئل عن ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ فأطرق مالك وعلاه العرق وانتظر القوم ما يجب منه فيه فرفع رأسه إلى السائل وقال : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة وأمسك رجل أسود فأمر به فأخرج من المسجد^(٢) .

فقد ابتدع سلفنا الصالح الخوض في الأسماء والصفات والبحث فيها وسلموا وأمنوا بها جملة ، وعلى الغيب وهذا هو مذهب أهل الحق الذي نتمنى أن نكون في ركابه .

أخرج عن عمرو بن مطر قال : سئل ابن خزيمة عن الكلام في الأسماء والصفات والبدعة : ابتدعوها ولم يكن أئمة المسلمين وأرباب المذاهب وأئمة الدين مثل مالك وسفيان وابن المبارك ومحمد بن يحيى وأبى حنيفة ومحمد بن الحسن يتكلمون في ذلك وينهون عن الخوض فيه ويلعنون أصحابهم على الكتاب والسنة ، فأياك والخوض فيه والنظر في كتبهم بحال .

(١) ابن تيمية نقض المنطق ص ١٤٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٦ .

وأخرج عن أبي بكر بن بسطام قال : سألت أبا بكر بن يسار عن الخوض في الكلام فنهاني عنه أشد النهي . وقال : عليك بالكتاب والسنة وما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين فهم رايات المسلمين في أقطار الأرض ينهون عن ذلك وينكرونه ويأمرون بالكتاب والسنة ثم قال : الطبقة الثامنة ، وأخرج فيه من طريق أبي عبد الله الحاكم قال : سمعت أبا زيد الفقيه المروزي يقول : أتيت أبا الحسن الأشعري بالبصرة فأخذت عنه شيئاً من الكلام ، فرأيت من ليلتي في المنام كأنني عميت فقصصتها على المعبر فقال : إنك تأخذ علماً تضل به فأمسكت عن الأشعري فرأني بعد في الطريق فقال لي : يا أبا زيد أما تأنف أن ترجع إلى خراسان عالماً بالفروع جاهلاً بالأصول فقصصت عليك الرويا فقال اكنمها على ههنا ^(١) .

إن المخالفين لأصول الاعتقاد وهو مذهب السلف الصالح المتمسكون بالسنة المطهرة هؤلاء المخالفون هم أصحاب الأهواء وهم الذين أوصى أهل العلم بمجانبة مجالسهم وهم الذين قال فيهم الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : حكم في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويحملوا على الإبل ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام ^(٢) .

ثم قال البغوي رحمه الله : (قد أخبر النبي ﷺ عن اقتراف هذه الأمة وظهور الأهواء البدع فيهم وحكم بالنجاة لمن اتبع سنته وسنة أصحابه ﷺ . فعلى المرء المسلم إذا رأى رجلاً يتعاطى شيئاً من الأهواء والبدع معتقداً أو يتهاون بشيء من السنن أن يضجره ويتركه منه ويتركه حياً أو ميتاً فلا يسلم عليه ولا يجيبه إذا ابتدأ عليه أن يترك بدعته ويراجع نفسه ^(٣) .

(١) جلال الدين السيوطي/ صون المنطق والكلام ص ٧٦ .

(٢) البغوي ج ١ ص ٢٢٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٤ .

وقد حذر النبي ﷺ من الخوض في أصول سنة الاعتقاد الذين يتبعون
التحدث في متشابه القرآن ، ونحن نعلم أن القرآن الكريم يشتمل على محكم يجب
اتباعه ومتشابه يجب التسليم به قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ
آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أَمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ
فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ
وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧] .

قال رسول الله ﷺ : " فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين
سمى الله فاحذروهم " .

وقوله تعالى : ﴿ آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ ﴾ أى غير منسوخات وقيل المحكم : وهو
الذى يعرف بظاهره معناه فأما المتشابه ففيه لأقويل :

أحدهما - ما قاله الخطابي وجماعة : ما اشتبه منه فلم يتعلق معناه في لفظه
ذلك على ضربين أحدهما : إذا رد إلى المحكم عرف معناه ورد الآخر ما لا
سبيل إلى معرفة كنهه والوقوف على حقيقته ولا يعلمه إلا الله وهو الذى يتبعه
أهل الزيغ يبتغون تأويله كالإيمان بالقدر والمشينة وعلم الصلوات ونحوها مما لم
نتعبد به ولم يكشف لنا عن سببه فالمتبع لها متبع للفتنة لأنه لا ينتهى منه إلى حد
تسكن إليه نفسه الفتنة ، الغلو في الويل المظلم وقوله تعالى : ﴿ هُنَّ أَمُّ الْكِتَابِ ﴾
أى معظمه يقال لمعظم الطريق : أم الطريق وقوله ﷺ ﴿ حتى يبعث فى أمها
رسولا ﴾ أى فى معظمها ^(١) .

(١) شرح السنة للبغوى ص ٢٢٢ ج ١ .

ثم قال في موضع آخر : (اتفق علماء السلف من أهل السنة على النهي عن الجدل والخصومات في الصفات وعن الزجر وعن الخوض في علم الكلام وتعلمه ، وقال الإمام مالك : إياكم والبدع قيل : يا أبا عبد الله ما البدع ؟

قال : أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون عما سكنت عنه الصحابة والتابعون بهم بحساب ^(١) .

وهذا كله مما تنبأ به النبي ﷺ من أن المسلمين ستفترق إلى فرق عديدة كلهم يتبعون الأهواء والزيغ والتحدث فيما لا يعنيههم ولا يعود عليهم بفائدة في عقيدتهم سوى إحباط وتقليل إيمانهم وكل هؤلاء والعياذ بالله في النار سوى أهل اتباع الحق الذين يلتزمون السنة المطهرة ويعملون بها " أهل الديانات قد انحصرت مذاهيبهم بحكم الخبر الوارد فيها فافتרכת المجوس على سبعين فرقة ، واليهود على إحدى وسبعين فرقة ، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، والمسلمون على ثلاث وسبعين فرقة ، والناجية أبدا من الفرق واحدة والحق من القضيتين المتقابلتين في واحدة ، ولا يجوز أن تكون قضيتان متناقضتان متقابلتان على شرائع التقابل إلا إذا انقسمت لعدة ويكون الحق في أحدهما دون الأخرى ، ومن المحال الحكم على المتخاصمين المتضادين في أصول المعقولات بأنهما محققان صادقان . وإذا كان الحق في كل مسألة عقلية واحدة . فالحق في جميع المسائل يجب أن يكون مع فرقة واحدة ، وإنما عرفنا هذا بالسمع وعنه أخبر التنزيل في قوله ﷻ : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨١] .

وأخبر النبي عليه السلام أنه قال : " ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة : الناجية منها واحدة والباقون هلكى قيل : ومن الناجية ؟ قال : أهل السنة

(١) المرجع السابق ص ٢١٧ ح ١ .

والجماعة ، وقيل : ما السنة والجماعة ؟ قال : ما أنا عليه اليوم أنا وأصحابي^(١) .

وخلاصة ما سبق ذكره أن الاعتقاد في سنن الأصول أمر واجب الإيمان به جملة وعلى الغيب ، ويجب اتباع السلف الصالح فيما اتبعوه من فهم الأسماء والصفات عن رسول الله ﷺ لكن الذين خالفوهم واتبعوا أهواءهم وساروا في زيغهم وخاضوا في هذا البحر المتلاطم الذي لا نجاة منه خلا من رحم الله ، فقد اختلف العلماء في هؤلاء فمنهم من كفرهم لوضوح مخالفتهم لسنة رسول الله ﷺ؛ ومملاك وفهم السلف الصالح ومنهم من أطلق القول بابتداعهم دون أن يكفرهم ومنهم من كفر أئمة الضلال منهم وفسق أتباعهم المقلدين على غير بصيرة .

والعلماء في هذا مختلفون في الحكم عليهم ولكل اجتتهاده وأدلته على ما يقول لأن بدع أهل الأهواء احتملت هذه التوصيات السابقة الذكر وهذا بخلاف صنيع أهل الشرك من الذين خالفوا توحيد الألوهية من جعل أو نذر أو نبح لغير الله مثلا ، حيث إن تلك الأفعال لا تحتل سوى إطلاق لفظ واحد وهو الشرك بالله العظيم وهذا ما لا يرتضيه الله ﷻ .

أما أصحاب الأهواء والزيغ فإن أقوالهم وإن كانت بها كفر إلا أنهم لا يوصفون بأنهم كافرون ذلك لسببين :

١ - لشبه الخفاء المتعلق بأمور سنة الاعتقاد والتي لا يعلمها ولا يجيد فهمها إلا طائفة من أهل الحق ، وعلماء السنة المتبعون لآثار السلف ولا يخوضون فيما لم يكلفوا به .

(١) الشهرستاني / الملل والنحل ج ١ ص ١١ ، وقد ذكر عبد القاهر البغدادي - في الفرق بين الفرق طبعة دار الأفاق الجديدة ص ٣ ، ثلاث روايات منسوبة لأبي هريرة لكن بثلاث طرق مختلفة .

٢ - عدم قطعية الدليل بكفر القائل المخالف ، ولهذا كان الأمر محل اجتهاد العلماء عما كان له الأثر في اختلافهم في حكم أهل البدع بين مكفر ومبدع ومفسق لكون الأمر كله مرجعه ذلك الاجتهاد .

قال البغوى : (قال الشيخ ثم هم مع هجرانهم كفوا عن إطلاق اسم الكفر على أحد من القبلة ، لأن النبي ﷺ جعلهم من أمته وكان أبو سليمان الخطابي لا يكفر أهل الأهواء الذين تأولوا فأخطئوا)^(١) .

وسلفنا الصالح قد استعظموا الخوض في أمور الدين بعقولهم وخصوصا أنهم لم يطالبوا بذلك بل أمروا بالتسليم المطلق ؛ لأنهم كانوا قد أرسوا أقدامهم بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، مما جعلهم يطلقون على من خالفهم أنهم خارجون عن منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا رضوان الله عليهم يفضلون إتيان الرجل لما نهى الله عنه أفضل له من ابتداع في دين الله أو الخوض فيه أو تعلم علم الكلام فكانوا يتعاملون مع نصوص القرآن بنفس فهم ما تعلموه من النبي ﷺ سواء محكمه أو متشابهه فكانوا يعلمون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ٧] .

قال البغوى : كان علماء السلف يقولون : لأن يلقى الله العبد بكل ذنب خلا الشرك خير له من أن يلقاه بشيء من الأهواء .

وعن الشافعى أيضا : لأن يبئلى المرء بما نهى الله عنه ما خلا الشرك خير له من أن يبئليه بالكلام^(١) .

(١) شرح السنة للبغوى ج ١ ص ٢١٧ .

الجوهرة السادسة عشرة

دلالات ألفاظ التوحيد

بين المتكلمين والسلف الصالح

(١) البغوى / شرح السنة للبغوى ج١ ص ٢١٧ .

الجوهرة السادسة عشرة

دلالات ألفاظ التوحيد

بين المتكلمين والسلف الصالح

ذهب المتكلمون في صفة الوجدانية فقالوا : إن الله سبحانه واحد في ذاته واحد في صفاته واحد في أفعاله .

قال المالكي : من الصفات السلبية الواجبة له سبحانه وحدانيته ، والمراد هنا وحدة الذات والصفات والأفعال ، بمعنى عدم النظر فيها بأنه لو وجد فردان متصفان بصفات الألوهية لأمكن بينها تمنع بأن يريد أحدهما حركة زيد والآخر سكوته لأن كلا منهما في نفسه أمر ممكن وكذلك تعلق الإرادة بكل منهما ، إذ لا تضاد بين الإرادتين بل بين المرادين وحينئذ إما أن يحصل الأمران فيجتمع الضدان أولا فليزِم عجز أحدهما وهو أماراة الحدوث والإمكان لما فيه من شائبة الاحتياج ، فالتعدد مستلزم لإمكان التمتع المستلزم للمحال فيكون محالا ، وهذا يقال له برهان التمتع وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ وبيانه ما علمت ومما يجب اعتقاده أنه تعالى وجبت له الصفات المذكورة حال كونه منزها عن ضد وما معه أو صافه ، أي صفاته مطلقا سنية أي كالنور بجامع الاهتداء أو معناه رفيعة وعلق بقوله منزها عن ضد أي مضاد له سبحانه وتعالى أو لصفاته وإلا لوجب ارتفاعه أو ارتفاعها مطلقا إن دام الضد أو مقيدا بحالة وجوده إن لم يدم ، والفرض أنه واجب الوجود قديم وكذا صفاته هذا خلف أو شبه أي مشابه له تعالى في ذاته أو صفاته بوجه وحال لوجوب مخالفته تعالى للممكنات ذاتا وصفاتا وحال كونه تعالى منزها أيضا عن مشارك له مطلقا أي في أسمائه أو في صفاته أو في أفعاله فلا تكثر في ذاته ولا أفعاله فلا تكثر

في ذاته ولا نظير في صفاته ولا اختراع لغيره في أفعاله .

وهذه نظرة محددة للغاية حيث قصور تصور توحيد الله سبحانه وتعالى ووجدانيته في ثلاثة أقسام : توحيد ألوهية ، وتوحيد صفات ، وتوحيد أفعال ، للأسف الشديد لم يدخلوا في وحدانية توحيد الألوهية وهذا النوع الأخير من التوحيد هو المقصود بشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهو المطلوب عند الله سبحانه وتعالى وهو المنجي من نار الآخرة والعياذ بالله ؛ لأن هذا النوع من التوحيد هو الذى خلق من أجله الخلق ﴿ الجن والإنس ﴾ لقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦].

النوع من التوحيد هو الذى من أجله أرسلت الرسل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥].
لأن أرشدوا الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد
عالم تعالى :

عَبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿

مَنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ ﴾ [المؤمنون : ٣٢].

وقوله :
هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ
اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [٣٠ :] .

من أجل ذلك كله قامت المعارك الكلامية والجدلية بين الرسل والأنبياء وبين أقوامهم المعاندين المكذبين الذين لم يرتضوا بهذا النوع من التوحيد وهو توحيد الألوهية ، وهو أن الله تعالى واحد في ألوهيته لا شريك له فيفرد وحده بالعبادة .
وعلى سبيل المثال قال تعالى عن قوم نوح : ﴿ قَالُوا يَنْتُحِ قَدْ جَاءَكُنَّا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَادِقِينَ ﴾ [هود : ٣٢] .

وقال في إبراهيم وقومه : ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أَلَمْ أَنذَرَكُم . أَنِّي أَخَذْتُ الْعِبَادَةَ مِن دُونِ اللَّهِ أَلَّا يَعْبُدُونِي . قَالُوا خَرُّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . قُلْنَا يَبْنَؤُا كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٦] .

وقال عن المكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾
 ﴿ إِن يَخُونُكَ إِلَّا هُزُواً أَمْ يُكَلِّمُونَ الْبُتْءَانَ الَّذِي يَقُولُ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٣٦] .

فهذا هو توحيد الألوهية الذى أمر الله به وشاء أن يخلق الجن والإنس من أجله وأمر رسله أن يدعو الناس إليه باختلاف عصورهم وأماكنهم وشرائعهم . وهذا بكل أسف ما فعله عامة المتكلمين الذين تكلموا فى أنواع التوحيد وقسموه إلى ثلاثة أقسام (السابقة الذكر) وهذا من أوجه غلطهم فى معنى التوحيد ، أما الأوجه الأخرى التى يجب توضيح غلطهم من خلالها فهى من قبيل تقسيمهم إلى توحيد الذات والصفات والأفعال وهى على النحو الآتى :-

أولاً : بالنسبة لقولهم :

إن الله واحد في ذاته فهو قول فيه إجمال ولا نعلم مراد قولهم في ذلك فيما أن يحتمل تنزيه الله عن التركيب والتجزئ ، وهذا حق لأنه الله أحد أي لا جزء له ولم يتركب من أجزاء وواحد أي لا شريك له ، وهذا في تفصيله كله حق وإما يكون مرادهم نفى ما وصف الله به من علوه في السماء واستوائه على العرش وإثبات الوجه واليد والمجىء والصعود والنزول إلى غير ذلك فهذا كله باطل ، لأن الله أثبت ذلك بكتابه الكريم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم مع عدم المناظرة والتشبيه ؛ لأنه أثبت بعد ما نفى التشبيه فقال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

قال ابن تيمية : " قولهم إن الله واحد في ذاته لا قسم له فإن أرادوا به أن الله تعالى لا يتجزأ ولا يتفرق ولا يكون مركب من أجزاء فهذا حق بأن الله تعالى أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وإن أرادوا به مع ذلك نفى ما وصف به نفسه كعلوه واستوائه على عرشه ووجهه يديه ونحو ذلك هذا هو مرادهم - فهو باطل ؛ لأن الله تعالى قد أثبت لنفسه من صفات الكمال من هذا وغيره ما هو أهل له وتوحيده فيها إثباتاً له على الوجه اللائق به بدون تمثيل لا أن تنفى عنه نوع من التحريف والتعطيل ^(١) .

وفي موضع آخر . . قال ابن تيمية : " قال أبو بكر بن فورك أنه سبحانه واحد في ذاته لا قسم له ، وواحد في صفاته لا شبيه له ، وواحد في أفعاله لا شريك له ، ثم يناقش مقصودهم لهذه المعاني فيقول :

أحدهما : أنه الذي لا ينقسم ولا يتجزأ ولا يتبعض ولا يتركب ، وربما قال بعضهم : هذا تفسير الاسم الواحد . وهذه الوجدانية هي التي ذكروها هنا ، إذ

(١) ابن تيمية تقريب التكمية ص ١٢٠ .

ليس مرادهم بأنه لا ينقسم ولا يتبعض ولا يتفصل بعضه عن بعض وأنه لا يكون إلهين اثنين ، ونحو ذلك مما يقول نحوا منه النصارى والمشركون فإن هذا مما لا ينازعهم فيه المسلمون وهو حق لا ريب فيه وكذلك علماء السلف ينفون التبعض عن الله بهذا المعنى وإنما مرادهم بذلك لا يشابهه الكافر المطلق وهو المعادى المحارب لم يدخل فيه المنافق ولا المرتد ولا الذمى ، فإذا كان المؤمن يرث المنافق لكون المسلم له مناصراً له فى الظاهر فكذلك الذمى ، وبعض المنافقين شر من بعض أهل الذمة .

وقد ذهب بعضهم إلى أنه يرث المسلم الكافر بالموالاة . وهو أحد القولين فى مذهب أحمد نص عليه فى رواية الجماعة : وأبى طالب ، والمروزي ، والفضل بن زياد : فى المسلم يعتق العبد النصراني ثم يموت العتيق يرثه بولاء . احتجوا بقوله : (الولاء لمن أعتق) .

قال المانعون من التوريث : له عليه ولكن لا يرث به . قال المورثون : ثبوت الولاء يقتضى ثبوت حق يصل إليه أو يدنو منه أو يقرب إليه فى الحقيقة ، فهذا ونحوه هو المراد عندهم بكونه لا ينقسم ويسمون ذلك : نفى التجسيم إذ كل ما ثبت له ذلك عندهم كان جسماً منقسماً مركباً : والبارى منزّه عن هذه المعانى ^(١) .

ثانياً : بالنسبة لتوحيد الله فى صفاته :

كما ذهبوا إليه بالقسم الثانى من تقسيمهم توحيد الله ، فهذا قول فيه إجمال ويحتاج إلى تفصيل . فإن كان مرادهم إثبات صفات الله بالوجه اللائق بجلاله وكماله فيها ونعمت ، وهذا هو مذهب سلفنا الصالح الذين فهموا ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم فأمنوا به .

(١) ابن تيمية الفتاوى ج ٥ ص ١٩٣ .

أما إذا كان مرادهم نفى أى صفة تشابه صفة أى مخلوق ، فهذا تكلف ولغو ويترتب عليه تحصيل حاصل لبداية ما يتأتى من وراءه ، لأن الله قال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فهم بذلك يعطلون بحجة التنزيل .

وإن كان مرادهم هو نفى أى قدر مشترك بين صفات الخالق والمخلوق واختصار كل منهما بصفاته الخاصة به ، فهذا واضح البطلان وقد ذهبوا إلى ذلك من باب نفى التشبيه بين الخالق والمخلوق ، فبدلاً من أن ينزهوا الله سبحانه عن التشبيه قاموا بتعطيل تلك الصفات فعطلوا ولم ينزهوا ، وقد ذهبت إلى ذلك المعتزلة والجهمية وغلاة الفلاسفة والقرامطة وغلاة الشيعة .

قال ابن تيمية : فإن أرادوا به إثبات صفات الله تعالى على الوجه اللائق به من غير أن يماثله أحد فيما يختص به ، فهذا حق هو مذهب السلف لكن عامة المتكلمين لا يريدون ذلك .

وإن أرادوا به نفى أن يكون شيء من المخلوقات مماثلاً له من كل وجه فهذا لغو لا حاجة إليه ، فهو كقول القائل : السماء فوقنا والأرض تحتنا ، لأن مماثلة الخالق للمخلوق من كل وجه معلوم الانتفاء ؛ بل الامتناع بضرورة العقل ، والسمع ، وإجماع العقلاء (ولهذا لم يثبت أحد من الأمم أحداً مماثلاً لله تعالى من كل وجه ، وغاية من شبه به شيئاً أن يشبهه به فى بعض الأمور) .

وإن أرادوا به نفى أن يكون بين صفات الخالق والمخلوق قدر مشترك مع تميز كل منهما بما يختص به - وهذا مرادهم - فهو باطل ، لأنه قد علم بضرورة العقل أن كل موجودين قائمين بأنفسهما لابد من قدر مشترك بينهما مع تميز كل واحد منهما بما يختص به ، كاتفاقهما فى مسمى الوجود ، والذات والقيام بالنفس ونحو ذلك ، ونفى هذا القدر تعطيل محض .

والقول بهذا المراد لا يمنع نفى ما يجب لله تعالى من صفات الكمال عند من يرى أن الثبات يستلزم التشبيه ، فقد سبق أن أهل التعطيل من الجهمية والمعتزلة

وغيرهم أدخلوا نفى الصفات في مسمى التوحيد ، وقالوا : من أثبت لله علما ، أو قدرة ونحو ذلك فهو مشبه غير موحد ، وزاد عليهم غلاة الفلاسفة والقرامطة فأدخلوا فيها نفى الأسماء وقالوا : من قال : إن الله عليم قدير ونحو ذلك فهو مشبه غير موحد ، وزاد عليهم غلاة الغلاة فقالوا : إن الله لا يوصف بما يتضمن إثباتا أو نفيا ، فمن نفى عنه صفة أو أثبت له صفة فهو مشبه غير موحد (١).

وهكذا نرى أن المتكلمين باختلاف فرقهم وأصولهم قد خالفوا السلف الصالح في ما ذهبوا إليه من توحيد الأسماء والصفات ، وقد نحى المتكلمون مسلك توحيد قولي نظري أكثر منه عملي وقد تجاهلوا توحيد الألوهية وتوحيد الصفات ، كما ذهب لذلك سلفنا الصالح ما أوردوه من توحيد الأسماء والصفات ، وكى نناقش ما ذهب إليه المتكلمين من توحيد الأسماء والصفات وما ترتب عليه من وقوع في أخطاء عديدة نحب أن نذكر ما ذكره بعض المتكلمين وخصوصا المعتزلة مما قالوه في توحيد الصفات لله عز وجل قال الدكتور محمد محمود صبحي :

واجهت المعتزلة بعد أن ذهبوا في التنزيه إلى حد نفى أدنى مماثلة بين الله والإنسان ألا وهي الآيات التي توهم التشبيه ، وقد تأولها المعتزلة على نحو يتسق مع تنزيههم المطلق لله . وقد استخدموا في التأويل إحدى طرق ثلاثة :

١ - ثراء اللغة في دلالة اللفظ على عدة معاني .

٢ - بلاغة اللغة العربية وكثرة استخدام العرب للمجاز والاستعارات والكنائيات وذلك أكثر تأويلاتهم للآيات المتشابهة .

٣ - تحريف بسيط في قراءة بعض الآيات مستندين إلى تعدد القراءات (٢).

فهذا تنزيه للمعتزلة لذات الله عز وجل . وهذه هي طريقتهم في هذا التنزيه ، وقد نسي هؤلاء أن الله سبحانه وتعالى قد أثبت لنفسه صفات جليلة واضحة

(١) ابن تيمية / تقريب التتمرية ص ١٢٠ .

(٢) أحمد محمود صبحي / في علم الكلام / دراسة فلسفية لأراء الفرق الإسلامية في أصول الدين ج ١ طبعة مؤسسة الثقافة الجامعية بالاسكندرية ص ١٢١ .

بنصوص صريحة بعد نفيه للتمثيل ، وهذا مثبت ضمن آية سورة الشورى المتضمنة النفي والإثبات في نفس الوقت^(١).

فبدلاً من أن ينزهوا الله سبحانه وتعالى عطلوا صفات صريحة نص عليها القرآن الكريم بحجة التنزيه وعدم التجسيد والتشبيه بالمجسدة والمشبهة .
قال الدكتور صبحي :

" المعتزلة تعنى بالتوحيد التنزيه المطلق لله عن صفات المخلوقين . وقد جاء قولهم في التوحيد معارضا للتصور اليهودي من جهة والأراء المجسمة والمشبهة والحشوية من جهة أخرى ، فالله لدى المعتزلة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ تلك آية محكمة تؤول في ضوئها كل آيات يدل ظاهرها على اتصاف الله بأوصاف المخلوقين ليس بجسم ولا شبح ولا صورة ولا لحم ولا دم (إنكار على المجسمة الذين جعلوا الله جسماً)^(٢).

رغم دلالة آية الشورى بأن ليس كمثله شيء فلا تعنى المماثلة للمخلوقين بالاعتقاد في ما ذكره الله من نصوص صريحة بالقرآن الكريم والسنة المطهرة ، لأن الإشارة بباقي الآية وهو السميع البصير تدل على إثبات الصفات كلها لله مع عدم التشبيه ، فنحن نؤمن بها كما هي ولكن لا نقارن بينها وبين صفات المخلوقين ، ومما ذكره بعض هؤلاء المتكلمين عن تحديد جهودهم في تنزيه الله بتعطيل الصفات هذا النص .

وقد ضل قوم ينتحل الإسلام من المشبهة الملجدين الذين شبهوا الله جل ذكره ، وزعموا أنه على صورة الإنسان ، وأنه جسم محدود وشبح مشهود واستدلوا بآيات من الكتاب متشابهات حرفوها بالتأويل ونقضوا بها التنزيل كما

(٢) قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

(٣) أحمد محمود صبحي / في علم الكلام ص ١١٧ ج ١ .

حرف من كان قبلهم من اليهود والنصارى كلام النصارى عن موضعه ،
وبأحاديث افتعلها الضلال من بغاة الإسلام فحملها عنهم الجهال فيها الإلحاد
والكفر بالله (وأحاديث لم يعرفوا حسن تأويلها ، ولم يعنوا بتصحيحها فضلوها
وأضلوا كثيرا عن سواء السبيل)^(١).

والحق أنهم هم الذين ضلوا وأضلوا غيرهم لأنهم لم يتبعوا ما فهمه سلفنا
الصالح عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسلكوا نهجهم بل سلكوا نهج التأويل
ولوى عنق النصوص الصريحة الواضحة لكي يخرجوا منها ما يوافق هوى
عقولهم فعطلوا وردوا نصوص بحجة التنزيه رغم أن سلفنا الصالح أخذوا عن
النبي صلى الله عليه وسلم ما أملاه عليهم من التسليم والإيمان بكل ما جاء به
القرآن والسنة فقالوا : سمعنا وأطعنا وقالوا : لله صفات عديدة آمنّا بها والله يد
وجه ولكن ليست كأيدينا وليست كوجوهنا فنزهوا الله وفي نفس الوقت لم
يمثلوه سبحانه بالمخلوقات وفي نفس الوقت أثبتوا له سبحانه ما شاء أن يثبت من
صفات في قرآنه وسنة حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وهذا كله راجع إلى تجاهلهم للتوحيد العملي الذي سلكه السلف الصالح
رضى الله عنهم مركزين جهودهم على التوحيد القولي ، وهذا كله مما أبدعوه
في الدين فضلوهم وأضلوا غيرهم فقسموا التوحيد إلى توحيد ذات وتوحيد صفات
وتوحيد أفعال ، وسوف نناقش بمشيئة الله عز وجل هذا الإدعاء مبينين خطأ
تقسيمهم للتوحيد على هذا النحو .

ومن جهة أخرى من معاني التوحيد الصفات عندهم هو أن الله سبحانه لا
شبيه له ، وهذه الكلمة أقرب إلى الإسلام ولكن أجعلوها فجعلوا نفى الصفات أو
بعضها داخلا في نفى التشبيه واضطربوا في ذلك على درجات لا تتضبط .

(١) الحسن البصري/القاضي عبد الجبار/ القاسم الرسي/ الشريف المرتضى/ الإمام يحيى بن
الحسين/رسائل العدل والتوحيد دراسة وتحقيق محمد عمارة طبعة دار الشروق ص ١٣٠.

فالمعتزلة تزعم أن نفى العلم والقدرة وغير ذلك من التوحيد ونفى التشبيه والتجسيم والصفاتية (الأشاعرة والكلابية) وغيرهم تقول ليس ذلك - يعنى أن الأشاعرة لا تنفى العلم والقدرة ولا ترى أن إثبات هذه الصفات لله عز وجل تشبيه أو تجسيم .

من التوحيد ونفى التجسيم والتشبيه ثم هؤلاء مضطربون فيما ينفونه من ذلك لكن وافقوا أولئك على أن ما نفوه من التشبيه وما نفوه من المعنى الذى سموه تجسيما هو التوحيد الذى لا يتم الدين إلا به وهو أصل الدين عندهم . وكل من سمع ما جاءت به الرسل يعلم بالإضرار أن هذه الأمور ليست مما بعث الله به رسوله ولم يكن الرسول يعلم أمته هذه الأمور ولا كان أصحابه عليها فكيف يكون هذا التوحيد الذى هو أصل الدين لم يدع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابه والتابعون بل يعلم بالاضطرار أن الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة يخالف هذا المعنى الذى سماه هؤلاء الجهمية توحيدا ؛ ولهذا زال سلف الأمة وأئمتها ينكرون ذلك^(١) .

وموقف الفرق الكلامية من الصفات موقف متفاوت نسبي بحسب ما يوافق أصول ومنهج الفرقة ، فالأشاعرة والكلابية وغيرهم من المتكلمين غير المعتزلة مع إثباتهم للقدرة والإرادة وغير ذلك من صفات الذات ينفون غير ذلك من الصفات . ثم هم مختلفون فى ذلك فبعضهم ينفى صفات معينة بدعوى أن إثباتها يترتب عليه تشبيه والبعض الآخر يثبتها ولا يرى فيها تشبيه ولكن ينفى غيرها لما رأى فى إثبات ذلك من تشبيه .

يقول ابن تيمية فى تقرير الصفات أن هناك أربع مسائل فى ذلك مسألتان عقليتان ومسألتان سمعيتان :

(١) ابن تيمية مجموعة الفتاوى مكتبة ابن تيمية لطباعة نشر للكتب من ١٩٣ ج ٥ .

الأولى : أن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها إلى ذلك المحل فكان هو الموصوف بها فالعلم والقدرة والكلام والحركة والسكون إذا قام بمحل كان ذلك المحل هو العالم القادر المتكلم أو المتحرك أو الساكن .

الثانية : أن حكمها لا يعود على غير ذلك المحل فلا يكون عالما بعلم يقوم بغيره ولا قادرا بقدرة تقوم بغيره ولا متكلمًا بكلام يقوم بغيره ولا متحركًا بحركة تقوم بغيره وهاتان عقليتان .

الثالثة : أنه يشتق لذلك المحل من تلك الصفة اسم إذا كانت تلك الصفة مما يشتق لمحلها منها اسم ، كما إذا قام العلم والقدرة والكلام والحركة بمحل قيل وعالم قادر متكلم متحرك .

الرابعة : أنه لا يشتق الاسم لمحل لم تقم به تلك الصفة فلا يقال لمحل لم يقم به العلم أو القدرة أو الإرادة أو الكلام أو الحركة : إنه عالم أو قادر أو متحرك ، والأشاعرة والكلائية طبقوا هذه القواعد في صفات الذات ونقضوها وعارضوها في صفات الأفعال .

والجهمية والمعتزلة عارضوا هذا بالصفات الفعلية فقالوا : إنه كما يقال خالق عادل بخلق وعدل لا يقوم به بل هو موجود في غيره ، فكذلك هو متكلم مريد بكلام وإرادة لا تقوم به بل يقوم الكلام بغيره ، فمن سلم لهم لهذا النقص كالأشعرى ومن اتبعه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد أظهر تناقضهم ولم يجيبوهم بجواب مستقيم .

وأما السلف وجمهور المسلمين من جميع الطوائف فإنهم طردوا أصلهم وقالوا : بل الأفعال تقوم به كما تقوم الصفات ، والخلق ليس هو المخلوق وذكر البخاري أن هذا إجماع العلماء ومن قال : الصفات تنقسم إلى صفات ذاتية وفعلية ولم يجعل الأفعال تقوم به فكلامه فيها تلبيس (فإنه سبحانه لا يوصف بشيء لا يقوم به وإن سلم أنه يتصف بما لا يقوم به ، فهذا أصل الجهمية الذين يصفونه

بمخلوقاتهم ويقولون : إنه متكلم ومريد وراض وغضبان ومحب ومبغض وراحم بمخلوقات يخلقها منفصلة عنه لا بأمر تقوم بذاته (١) .

وقد تأثر الأشاعرة والكلابية بالمعتزلة والجهمية ولم يكن تأثيرا شاملا في كل ما قالوه ، بل تأثروا بهم في قول دون قول وهذا هو أصل جهم الذي أسس عليه ضلالاته بأن قسم لفظ التوحيد بثلاثة معان ليس منها أى شىء من التوحيد الذى أرسل به الله سبحانه رسله وأنزل به كتبه ، وخلاصة القول فى الصفات أن أهل الكلام فيها فريقان ممثلة معطلة وكلاهما على باطل ، أما الممثلة أو المشبهة فهم الذين أثبتوا لله صفات تماثل صفات المخلوقين فذكروا لله وجه ويدان وعينان مثل وجوه وأيدي وأعين البشر وحججهم صريح القرآن فى أخذه بمخاطبته لعقولهم دون أى نفى للمماثلة بصفات المخلوقين ، وهذا باطل سمعا وعقلا وحسا (٢) .

أما المعطلة فمذهبهم باطل وهم على أربع فرق ، منهم الأشاعرة والمعتزلة وغلاة الجهمية وغلاة الفلاسفة ، وهذه الفرق هى التى أنكرت ما سمي الله به نفسه ووصف به نفسه إنكارا كلياً أو جزئياً رغم صريح القرآن والسنة فى ذلك (٣) . وقد ركزوا على التوحيد القولى السابق الذكر متجاهلين التوحيد العملى وهو توحيد الألوهية الذى تصرف فيه كل العبادة لله عز وجل ولوجهه الكريم أدناها وأعلىها . أقصاها وأقربها ، كله موجه لله عز وجل قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢-١٦٣] .

(١) ابن تيمية مجموعة الفتاوى شرح العقيدة الأصفهانية ص ٥٥٥ ج ٥ .

(٢) انظر تقريب التدمرية ص ٢٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٥ .

المعنى الثالث من معاني التوحيد:

الذى يقول بأن الله واحد فى أفعاله لا شريك له ، فمرادهم فى هذا أن الله سبحانه وتعالى واحد فى أفعاله وأنه لا شريك له وأنه لا يقدر على الاختراع إلا الله عز وجل .

وهذا هو أشهر أنواع التوحيد عند المتكلمين وهذا النوع واضح البطلان وسببه هو الإقرار بأن الله وحده خالق هذا الكون ولا شريك معه هذا توحيد ربوبية أقر به المشركون وأقر به إبليس نفسه فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢ ، و ص : ٧٦] .

قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾ [ص : ٧٩] .

رغم هذا الإقرار من إبليس بأن الله خلقه من نار وأقر بأن الله خلق آدم من طين إلا أنه خرج عن أمر الله عز وجل ولم يطعه عندما أمره بالسجود لآدم ، وأيضا مشركو مكة أقرروا بأن الله خالق السماوات والأرض وخالقهم إلا أنهم لم يستجيبوا لحقيقة شهادة أن لا إله إلا الله ، وهذا توحيد الألوهية فكانوا يفهمون هذا النوع من التوحيد وخصوصا أن النبى صلى الله عليه وسلم مكث فى مكة زهاء ثلاثة عشر عاما منذ البعثة .

وهذا يدعوهم فى الدخول إلى توحيد الألوهية لكنهم أبوا ورفضوا وتعنتوا واستكبروا فلم ينجيهم إقرارهم بتوحيد الربوبية مثل ما أقر إبليس بالضبط . ولم يدع أحد من المشركين ولا إبليس نفسه أن مع الله خالق قد شارك الله فى صنع هذا العالم سواء الأصنام التى كان يعبدونها المشركون أو أى وثن أو طاغوت كان يعبد من دون الله فكلهم لم يقولوا بذلك قط ولم يدعوه بل كانوا يوحدون الله توحيد ربوبية ويقولون بأنه خالقهم وخالق السماوات والأرض .

قال تعالى : ﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت : ٦١] .

﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت : ٦٣] .

وقال تعالى : ﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان : ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر : ٣٨] .

قال تعالى : ﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقْنَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف : ٩] .

قال تعالى : ﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف : ٨٧] .

وهذا كله غير مقبول عند الله .

قال ابن تيمية : " قولهم واحد في أفعاله لا شريك له " وهذا أشهر أنواع التوحيد عندهم ويعنون به أن خالق العالم واحد ، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب وأن هذا معنى (لا إله إلا الله) فيجعلون معناها : لا قادر على الاختراع إلا الله ومعلوم أن هذا خطأ من وجهين :

الأول : أن هذا الذي قرروه قد أقر به المشركون الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم فإنهم لم يجعلوا لله شريكا في أفعاله كما قال تعالى : ﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت : ٦١] ﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف : ٨٧] .

ومع هذا لم يكونوا موحدين بل هم مشركون بدلالة الكتاب والسنة ، الإجماع المعلوم بالضرورة من دين الإسلام لكونهم أنكروا توحيد الألوهية وقالوا : ﴿لَجَعَلَ الْإِلَٰهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥] ولهذا قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم مستبيحا دماءهم وأموالهم ، وسبي ذراريهم ونسائهم .

الثاني : أن تفسيرهم (لا إله إلا الله) بهذا التفسير الذي ذكروه - أي أنه لا قادر على الاختراع إلا الله - يقتضى أن من أقر بأن الله وحده هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شهد أن لا إله إلا الله وعصم دمه وماله .

ومعلوم أن تفسيرها الصحيح : أن لا معبود حق إلا الله ، هذا هو الذى يعرفه المسلمون من معناها - بل والمشركون - ألا ترى إلى قول الله تعالى فيهم : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا نَتَرَكُوكَ آلِهَةً إِنَّا لَشَاعِرٌ مَتَّعُونَ﴾ [الصافات : ٣٥-٣٦] .

وكانوا لا يستكبرون عن الإقرار بقلوبهم وألسنتهم بأن الله هو الخالق وحده ولا يدعون أن آلهتهم تخلق شيئا (فتبين بذلك أن المشركين أعلم وأفقه بمعنى لا إله إلا الله من هؤلاء المتكلمين ، وأن غاية ما يقرره هؤلاء المتكلمون من التوحيد توحيد الربوبية الذى لا يخلص الإنسان من الشرك ، ولا يعصم به دمه وماله ، ولا يسلم به من الخلود فى النار) (١) .

وقول القاضى أبى بكر وغيره وهو أنه سبحانه لا شريك له فى الملك بل هو رب كل شيء هذا معنى صحيح . وهو حق وهو أجود ما اعتصموا به من الإسلام فى أصولهم حيث اعترفوا فيها بأن الله خالق كل شيء ومربيه ومدبره . والمعتزلة وغيرهم يخالفون فى ذلك ، حيث يجعلون بعض المخلوقات لم يخلقها

(١) ابن تيمية / تقريب التدمرية ص ١٢٢

الله ولم يحدثها لكن مع هذا قد ردوا قولهم ببده غلوا فيها وأنكروا ما خلقه الله من الأسباب وما نطق به الكتاب والسنة من أن الله يخلق الأشياء بعضها ببعض. وما أجمله ابن تيمية هنا فصله في موضع آخر من رسالته فقال مخاطبا الأشعرية : وأيضا فأنتم في مسائل الأسماء والأحكام قابليتم المعتزلة تقابل التضاد حتى رددتم بدعتهم ببده تكاد أن تكون مثلها بل هي من وجه شر منها ومن وجه دونها ، فإن المعتزلة جعلوا الإيمان اسما متناولا لجميع الطاعات من القول والعمل ، ومعلوم أن هذا قول السلف والأئمة وقالوا : إن الفاسق لا يسمى مؤمنا ولا كافرا وقالوا : إن الفاسق مخلصون في النار لا يخرجون منها لا بشفاعة ولا غيرها . وهم في هذا القول مخالفون للسلف والأئمة فخلقهم في الحكم للسلف . وأنتم وافقتم الجهمية في الإرجاء والجبر فقلتم الإيمان مجرد تصديق القلب وإن لم يتكلم بلسانه ، وهذا عند الأئمة والسلف شر من قول المعتزلة ، ثم إنكم قلتم : إنا لا نعلم الفاسق هل يدخل أحد منهم النار ، أو لا يدخلها أحد منهم؟ فوافقتم وشككتهم في نفوذ الوعيد في أهل القبلة كلهم ومعلوم أن هذا من أعظم البده عند السلف والأئمة فإنهم لا يتنازعون أنه لا بد أن يدخلها من أهل الكبائر فأولئك قالوا: لا بد أن يدخلها كل فاسق وأنتم قلتم : لا نعلم هل يدخلها فاسق أم لا؟ فتقابلتم في هذه البده وقولكم : أعظم بدعة من قولهم وأعظم مخالفة للسلف والأئمة وعلى قولكم : لا نعلم شفاعاة النبي في أهل النار ؛ لأنه لا يعمل هل يدخلها أحد أم لا ؟ وقولكم إلى إفساد الشريعة أقرب من قول المعتزلة (١) .

* * * * *

(١) ابن تيمية الفتاوى / ج ٥ ص ١٣٧ .

أهم النتائج

من خلال الجواهر المكنونة السابقة الذكر نخلص إلى النتائج الآتية :

أولاً : ذكرت السنة المطهرة ثلاث روايات عن الإيمان ، وقد تضمن الإيمان ست نقاط أولها : الإيمان بالله ﷻ وهذا ما نعنيه بأن الشهادتين تعلن عن إيمان المرء بالله ﷻ ، وهذا أكبر أركان الإيمان ، أما الإعلان عن هذا الإيمان القلبي بالله ﷻ فيمكن بنطق المرء بهذه الشهادة ليعلن عما فى قلبه من إيمان حتى يمكن إدراجه ضمن المسلمين بهذه الشهادة . وببإحدى أركان الإسلام ، وهذا ما ورد فيه أربعة روايات خاصة بأن الإسلام قد بنى على خمسة أركان .

ثانياً : دل القرآن الكريم وهو المصدر الأول فى التشريع الإسلامى عن أدلة ساطعة جلية عن الشهادتين وردت فى كثير من السور الكريمة منها :

- آل عمران آية رقم ١٨ .

- النور آية رقم ٦٢ .

- محمد آية رقم ١٩ .

فهذه أدلة نقلية نص عليها صريح القرآن الكريم ، هذا إلى جانب ورود بعض الآيات التى لها دلالات عقلية تؤكد وحدانية الله مثل آية سورة الأنبياء رقم ٢٢ ، والتى تدل على أن حقيقة وحدانية الله ثابتة نصاً وعقلاً .

ثالثاً : دل القرآن الكريم على السنة المطهرة على أن شهادة محمد رسول الله ﷺ من آيات واضحات صريحة أهمها آل عمران : ١٤٤ ، والأحزاب : ٤٠ ، والفتح : ٢٩ ، والصف : ٤٠ ، إلى جانب الأدلة العقلية التى تثبت الرسالة لمحمد ﷺ (منها المعجزات وعلى رأسها القرآن الكريم وثباته على

هذا الأمر مدة ثلاثة وعشرون عاما بمكة والمدينة وزواجه بأكثر من واحدة وهم بمثابة وكالات الأنبياء المخبرات عن كل صغيرة وكبيرة تحدث في بيته .

رابعاً : دلت السنة المطهرة على ورود كثير من خلال نصوصها النبوية على فضل شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله وهي مثبتة بكتب الصحاح ، وقد ذكرتها في موضعها .

خامساً : تتمثل أركان شهادة لا إله إلا الله في نقطتين : أولهما : النفي والمقصود به النفي والكفر بكل الأنداد وكل ما يعبد من دون الله ، وهو بهذه العبادة راض ، وثانيهما : الإثبات والمقصود به هو إثبات العبودية لله الواحد الأحد من تقرير وحدانية الله ﷻ توحيد ربوبية وألوهية وأسماء وصفات .

سادساً : شروط شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله تتمثل في وجوب العلم بهما ، أى بالشهادتين طبقاً لآية سورة محمد رقم ١٩ ، وقبول كل أحكام الله مهما خالفت العقل أو وقف أمامها العقل وذلك لقصر إدراك العقل بحقيقة أحكام الله ﷻ وأسرار الدين ؛ لأن العقل مثل الحواس كليهما له حدود كما أنهما مخلوقان ، ويجب عدم الشك في أن الله هو المعبود في أن المعبود بحق هو الله ﷻ ، وأن الرسالة التي أنزلت على خاتم الأنبياء ﷺ هي الرسالة الخاتمة ؛ لأنه رسول الله صفيه وحبيبه ، ثم الانقياد والتسليم بكل ما أخبر به النبي ﷺ .

والصدق المطابق لكل لما عقد المرء عليه قلبه من إيمان ثم الإخلاص في العمل ، والمحبة الخالصة لله ﷻ ورسوله ﷺ والالتزام بما جاء في هذا الشرع الحنيف بقدر طاقة الإنسان .

سابعاً : أوجب الشرع الحنيف العلم بالشهادتين ثم العمل بمقتضى هذا العلم ثم دعوة الغير إلى هذا الدين بما علمته وبما أضرب المثل على هذا العلم بالعمل ،

ثم الصبر على كل أذى أو احتمال يترتب على دعوتى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما علمته وعملت به .

والنقطة الأولى وهى العلم بشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ، قد تضمن هذا العلم ثلاثة أصول وهى العلم بالله ، والعلم بالدين ، والعلم بالنبي ﷺ ويأتى أهم تلك الأصول هو العلم بلا إله إلا الله طبقاً لآية سورة محمد رقم ١٩ .
ثامناً : من أهم شروط شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله هو العلم بهما ولكن العلم على أى حقيقة ؟

فالعلم المذكور فى الآية من عدة وجوه : منها وهو الإعلام الجازم المطابق عن دليل ، وهذا الوجه مرفوض ، لأن الأمر فى الآية وجه إلى النبي ﷺ وما يترتب على ذلك أن العلم يسبقه جهل فلا يصح أن نقول ذلك فى حقه ﷺ .

الوجه الثانى : أن الأمر فى الآية جاء على سبيل الإخبار لا على سبيل العلم الجازم المصاحب للدليل ، وهذا مستبعد أيضاً ؛ لأن الإخبار بالشئ يعنى عدم العلم مسبقاً قبل الإخبار .

الوجه الثالث : أن الأمر فى الآية جاء على سبيل التثبيت الذى هو عليه من العلم بحقيقة لا إله إلا الله .

الوجه الرابع : أن النبي ﷺ خاطب فى الآية على سبيل التذكير للثبات وهذا هو الأصح .

الوجه الخامس : وهو مخاطبة الأمة فى شخص النبي ﷺ ومن الممكن على هذا الوجه أن نحمله على أى وجه من الوجوه السابقة الذكر .

والوجه السادس : أن الإعلام فى الآية بتذكير أمة سيدنا محمد ﷺ بتوحيد الربوبية لما أقروه فى الماضى فى عالم الذرارى وفى عهد الفطرة بتذكيرهم بهذا التوحيد لكى يخاطبوا بتوحيد الألوهية الذى هو مطالبين به بأن يصرفوا كل

العبادة لله الواحد الأحد الفرد الصمد دون أى شريك له ولا ولد فله الإنفراد بالعبودية والقصد المطلق ﷻ .

تاسعا : أن الفرق الكلامية قد اختلفوا فى تحديد حقيقة العلم والمعرفة بالله ﷻ فقالت المعتزلة : بأن بين العلم والمعرفة ترادف وقالت أهل السنة : إن بينهما ترادفا فى الإدراك إلا أنهم ذكروا عدة وجوه بينهما قد حققت التباين ، وكل قد ذكر رأيه بحسب أصل مذهب الذى ارتضاه لمذهبه من سبق الشرع على العقل أو العكس ، أما الصوفية : فلم يترقبهم الخاصة فى المعرفة الخاصة بالعلم اللدنى من الكشف الإلهى والفيض فهم يمثلون حالات خاصة شخصية تعبر عما يحسونه والمشهور عنهم مقولتهم : (من ذاق عرف) .

أما الحشوية - فقد ذكروا أن المعرفة غير واجبة بموجب اعتقادهم أن العلم قد كتب فى اللوح المحفوظ ، وأن الله قد خلق العقل وله حدوده التى لا تستطيع إدراك هذا العلم ، وهذا المذهب كما نراه فاسد لأن الشرع الخفيف قد أوقفنا على بعض حقائقه وأخفى الباقي فما علمناه فهو المحكم الذى يجب العمل به وما جهلناه هو المتشابه الذى يجب الإيمان به غيبا وتقويض العلم به إلى الله ﷻ .

عاشرا : أن تلك الفرق السابقة لم توقفنا على تحديد محدد من معرفة الله ﷻ هل تريد إيقافنا على معرفة وجود الله أو وحدانيته أو أسمائه وصفاته؟ لأن هناك فرقا بين هذه النقاط الثلاث ، إلى جانب اختلاف عصر معرفة كل نقطة على حدة هل فى عصر الفترة أو فى عصر الرسالة ؟ ، فلكل عصر حكم بموجب دلالة النقطة المثارة من وجود الله أو وحدانيته أو أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى ، وهذا لم تحده الفرق الكلامية إلا جملة وبدرج الاعتقاد بعلم وجود الله بوحدانته الله والأصوب أن نحدد تلك النقاط بعصر كل منهم .

حادى عشر : أما بالنسبة لاعتقاد المرء في وجود الله في عصر الفترة فهو أمر واجب العلم به ، ومنكره يكون كافرا وساترا لأدلة ساطعة جليلة عددها في ثلاثة نقاط : أولها آية الميثاق المذكورة بسورة الأعراف رقم ١٧٢ .

وثانيها : دليل الفطرة كما في سورة الروم آية رقم ٣٠ وحديث النبى : "كل مولود يولد على الفطرة " وثالثها : الآيات الكونية وهى بمثابة القرآن المفتوح للمتبصرين ، فالإنسان غير معذور فى هذه النقطة وهو اعتقاده بوجود إله بصرف النظر عن تحديد حقيقة هذا الإله وهذا بموجب الآيات الثلاث السابقة.

ثانى عشر : أما فى وجود عصر الرسالة فالإنسان غير معذور ألبتة فى اعتقاده بوجود الله ؛ لأن الأدلة والحجج قد تضاعفت عليه من الأدلة الثلاثة التى بعصر الفترة (الميثاق والفترة والآيات الكونية وزيد عليها ما جاء بوحي السماء الذى يؤكد تلك الأدلة) ، فلا عذر لأى إنسان فى هذا الاعتقاد وهذا يمثل توحيد الربوبية بأن يعتقد الإنسان أن هناك إلها خالقاً رازقاً ، ففى عصر الفترة لا يعرف الإنسان حقيقة هذا الإله لكن يؤمن به دون تيقن من حقيقته ثم ينزل وحي السماء ليؤكد له حقيقة إيمانه بأن هناك إلها حقاً خالق ورازق ومحي ومميت .

ثالث عشر : الاعتقاد فى وجود إله سواء فى عصر الفترة أو فى عصر الرسالة فلا يعذر إنسان فيهما ، ومما يؤكد ذلك أن كل ولد آدم يحاسبون على ذلك فى قبورهم من توجيه أول سؤال لهم فى القبر (من ربك؟) .

رابع عشر : أما نقطة اعتقاد المرء بوحداية الله فى عصر الفترة فالإنسان مضطرب فيها ويعذر على هذا الاضطراب بأن يعتقد فى إله يضيف عليه صفات الكمال ولكنه لا يستطيع بإدراة المحدود أن يصل إلى حقيقة هذا الإله الحق بأنه واحد أحد فرد صمد ، والدليل على ذلك أن الإنسان تمحى خطاياهم بمجرد وقوفه على حقيقة وحدانية الله ، وأكبر دليل فى ديننا الحنيف أن الإسلام يجب كل ما قبله من شرك ووثن وما شابه ذلك .

خامس عشر : فى عصر الرسالات السماوية يبين الله حقيقة ذاته بأنه واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وأنه هو المعبود بحق فلا توجه العبادة إلا لسواه ولا يتوجه بالنسك إلا لإياه ولا يحكم إلا لوجهه الكريم ولا يحب إلا فيه ولا يبغض إلا للتقرب منه ﷻ وهذا كله متمثل فى توحيد الألوهية .

سادس عشر : أما بالنسبة لوقوف العبد على أسماء الله وصفاته وعلمه بها فى عصر الفترة فإن العبد يعذر ولا يحاسب على ما يعتقد فى ما قام به من نسبة أسماء وصفات معبوده الذى ارتضاه لنفسه ؛ وذلك لعدم وجود وحى يوقفه على أسماء الله وصفاته ؛ لأن الأسماء والصفات توقيفية وليست توفيقية من قبل العقل البشرى .

سابع عشر : أما فى عصر الرسالة السماوية ، فالعبد غير معذور فيما أوقفه الشرع من معرفة أسماء الله وصفاته والإيمان بها يكون إيمان للجملة وعلى الغيب أما إذا أوقف على صفة بعينها فأنكرها فحكمه يكون كافرا ؛ لأنه أنكر صريح الشرع .

ثامن عشر : ماسبق ذكره من توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات هل يجوز فى تلك النقاط التقليد ؟ والإجابة على هذا السؤال تتطلب توضيح من سوف يكون المقلد هل هو أحد العوام أو عالم ؟ وهل التقليد يجوز فى أصول الدين أو فى فروعه ؟ .

والإجابة على هذه الأسئلة تتمثل فى أن العالم لا يجوز تقليده لغيره ممن هو أعلم منه إلا أن يكون فى أمر قد خفى عليه من فروع الدين ، وبالتالى يجوز للعوام التقليد فى فروع الدين للعلماء ، ولا يجوز التقليد فى أصل الدين الخاص بالمعتقدات ولو من العوام وخصوصا فى اعتقاد وجود الله والاعتقاد فى وحدانيته، أما الأسماء والصفات فرغم أنها من أصل الدين إلا أنها تعد من سنن

الاعتقاد ، والإيمان بها يكون إيمان لجملة الصفات والأسماء ما علمناها وما لم نعلمها ؛ ولذلك لم نجد من يكفر الفرق الكلامية التي أنكرت بعض الصفات بحجة التنزيه فعطلوا بدلا من أن ينزهوا وأيضا الذين شبهوا الله بالمخلوقين بأن أخذوا النصوص على ظاهرها المماثل للبشر ، وهذا المجال كله الخاص بالصفات يعد من سنن الاعتقاد المصاحب لأصل الاعتقاد .

تاسع عشر : فضل الشهادتين يتمثل في وجوه عديدة منها - أنها الاستمسك بالعروة الوثقى - وهي أول نعمة أنعم الله بها على عباده ، وهي كلمة العهد بين الله وبين عباده ، وهي كلمة الحق المرادة عند الله ﷻ وهي القول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة وهي الكلمة الطيبة .

وهي أيضا أفضل الذكر الذي ذكره صفوة خلق الله وهم الأنبياء والمرسلون وتتجى صاحبها من النار ، إنها أول أركان الإيمان ، وهي أثقل شيء في الميزان، وبها تكون الشفاعة يوم القيامة ، وهي حصن منيع للعبد الذي يرغب في النجاة من النار .

عشرون : في الدعاء إلى شهادة لا إله إلا الله قد ألزمتنا الدين الحنيف بهذا الأمر بدعوة غيرنا إلى الإيمان بتوحيد الألوهية والإلتزام بصرف كل شعيرة لوجه الله وكل نسك لوجهه الكريم ، وهذا ما يجب فعله من إيمان بتوحيد الألوهية ، فضلا عن الإيمان بتوحيد الربوبية . إن شهادة المرء بأن محمدا رسول الله ﷺ أمر واجب لأن شهادة لا إله إلا الله لا تقبل إلا بالشهادة الثانية وكلاهما يعبر عنه بالشهادة فكأنهما بنيان واحد ؛ لأن طاعة الله مرتبطة بطاعة النبي ﷺ كما أن الشروط التي يجب توافرها في شهادة لا إله إلا الله هي نفسها التي يجب توافرها في أن محمدا رسول الله .

إحدى وعشرون : حكم النطق بالشهادتين أمر واجب على كل مكلف يجب النطق بهذه الشهادة حتى يمكن إدراج هذا الشخص في المسلمين بأن يعامل معاملتهم ولا يأتي بنقيض ما ينطق به من مماثلة المشركين من السجود لصنم أو تقديس النار أو إهانة مقدسات المسلمين .

ثاني وعشرون : تتحقق حقيقة الشهادة بالالتزام والعمل طبقاً لما يدعيه نطق اللسان بأنه موحد لله ﷻ قابل لشرعه عامل بمحكم هذا الشرع ومسلم ومؤمن بمتشابهه وطائع لجميع أوامر النبي ﷺ ؛ لأن طاعته تتمثل في طاعة الله .

ثالث وعشرون : تتمثل في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات لا كما ذهبت إليه الفرق الكلامية من أن التوحيد ينقسم إلى توحيد ذات، وتوحيد صفات ، وتوحيد أفعال .

رابع وعشرون : توحيد الربوبية : يتمثل في اعتقاد العبد بأن الله هو الخالق الرازق المحي المميت ، الديان الذي سيدين الناس يوم القيامة والاعتراف بهذه الأمور وحدها لا ينجي العبد من عذاب الله يوم القيامة لأن الاعتراف بهذه الأمور قد اعترف بها إبليس نفسه ومشركو مكة واليهود والنصارى ، فإذا كان هؤلاء ناجون فإن الإقرار بالربوبية ينجي العبد وهذا ما لم يقله عاقل .

خامس وعشرون : توحيد الألوهية : يتلخص في صرف العبد كل عبادته إلى الله ﷻ مهما قلت أو كثرت بعدت أو قربت فإن العبد ينبغي عليه بل يجب - وهذا أمر واجب - أن يصرف كل العبادة لوجه الله ﷻ سواء أكانت هذه العبادة شعائر أم نفسك أم عدل محقق ومطبق بين الناس سواء حكام أو محكومين، هذا إلى جانب الولاء الذي يجب توافره بين المؤمنين والبراء من أعداء الله من المشركين والكفار ، فهذا كله يعد مسار توحيد الألوهية الذي يجب السير فيه والالتزام به .

سادس وعشرون : أن توحيد الألوهية هو الذي جاء به النبي ﷺ ودعى إليه في مكة والمدينة ، سواء مشركو مكة أو يهود المدينة أو نصارى نجران ، فقد دعاهم إلى قول لا إله إلا الله وهذا توحيد ألوهية لأنهم كانوا على توحيد الربوبية فلم يقل لهم لا رب إلا الله لأنهم مقرون برب السماوات والأرض وربهم فهم معترفون بأن ربهم هو الذي خلقهم ومحبيهم ومميتهم ورازقهم ، فلم يتبق منهم سوى أن يستجيبوا لله ﷻ بأن يتوجهوا بهذا الاعتراف من خلال شعائر الدين ونسكه والعدل والولاء والبراء إلى وجه الله الكريم بأن يصرفوا تلك الركائز كلها إلى وجه الله الكريم ﷻ .

سابع وعشرون : أن توحيد الأسماء والصفات ينبغي أخذه مما فهمه الصحابة والتابعون وتابعو التابعين وهم يعدون سلف هذه الأمة ولنا فيهم أسوة حسنة فيما اعتقدوه ، فقد فهموا عن النبي ﷺ الإيمان بكل ما أنزله الله في شرعه من صفات دون تأويل أو تحريف لصريح النص فما أثبتته الله ﷻ في شرعه يجب إثباته وما نفاه عنه ﷻ في شرعه يجب نفيه فنحن نثبت لله ما أثبتته وننفي عن الله ما نفاه عن نفسه من التشبيه والتمثيل ، ولا نقول بما قالته الفرق الكلامية وذهبت إليه من تعطيل صفات الله بحجة التنزيل فأولوا وقاموا بلوى عنق النص ليوافق هوى عقولهم .

ثامن وعشرون : إن دلالات ألفاظ التوحيد عند المتكلمين يجب الابتعاد عنها لوقوعهم في خطأ بين من تقسيم التوحيد إلى توحيد ذات وصفات وأفعال ، وهذا مما لم يقله السلف الصالح الذين فهموا دلالات ألفاظ التوحيد عن النبي ﷺ من توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ، فهذه كلها تعبر عن جملة الإيمان للتوحيد والمقبول إن شاء الله عند الله هو توحيد الألوهية لأن كل إنسان المفروض فيه أنه موحد للربوبية طبقاً لفطرته ، وآية الميثاق ، وللايات الكونية ،

أما توحيد الألوهية فهو فعل العبد الموافق لما زود به من توحيد الربوبية فيتوجه بكل عبادته إلى وجه الله ﷻ ، أما توحيد الأسماء والصفات فهو الإثبات والنفي معا ورغم خطأ المتكلمين في الأسماء والصفات ، إلا أن علماءنا لم يجرؤوا على تكفيرهم إذ أن الإيمان بالأسماء والصفات من سنن الاعتقاد ؛ ولأن هؤلاء من أهل القبلة وما ينبغي لأى مسلم أن يكفر أخوه المسلم وخصوصا أنه من أهل القبلة .



قائمة المراجع

- ١ - الإمام أحمد / مسند الإمام أحمد ط المكتب الإسلامي .
- ٢ - إبراهيم البيهقي / شرح البيهقي / على الجوهرة طبعة الإدارة العامة - للمعاهد الأزهرية سنة ١٣٩٤ هجرية .
- ٣ - أحمد محمد صبحي / في علم الكلام / دراسة فلسفية لأراء الفرق الإسلامية في أصول الدين ، مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية .
- ٤ - ابن تيمية تقريب التدمرية / طبعة دار الفكر العربي .
- ٥ - ابن تيمية / مجموعة التوحيد / دار الفكر العربي .
- ٦ - ابن تيمية / مجموعة الفتاوى / طبعة مكتبة ابن تيمية للطباعة والنشر .
- ٧ - ابن تيمية / نقض المنطق / دار الفكر العربي .
- ٨ - ابن قيم الجوزية / أحكام أهل الذمة / دار العلم للملايين .
- ٩ - ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / دار التراث العربي .
- ١٠ - أبو حيان التوحيدى / المقابسات / القاهرة ١٩٢٩ .
- ١١ - أبو حامد الغزالي / إحياء علوم الدين .
- ١٢ - أبو عاصم هشام بن عبد القادر / مختصر معارج القبول / ط دار الصفوة .
- ١٣ - أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسى / أم البراهين الكبرى ١٣٥٤ هجرية مصر .
- ١٤ - أبى مظهر الإسفرايينى / التبصير فى الدين / طبع سنة ١٩٥٥ الباب الحلبى .
- ١٥ - الألبانى / سلسلة الأحاديث / طبعة المكتب الإسلامى الطبعة الأولى .

- ١٦ - الألوسى / تفسير الألوسى طبعة إحياء التراث العربى بيروت لبنان.
- ١٧ - البخارى / صحيح البخارى / طبعة دار المعرفة .
- ١٨ - البيهقى / دلائل النبوة ومعرفة أصحاب الشريعة / ١٩٥٢.
- ١٩ - الترمذى / سنن الترمذى / دار إحياء التراث العربى .
- ٢٠ - الديوانى/ العقائد العضدية / تحقيق سليمان دنيا مطبعة عيسى الحلبي القاهرة ١٩٥٨ .
- ٢١ - الزمخشري / أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري / الكشف عن حقائق التنزيل / القاهرة ١٣٩٢ هجرية مصطفى البابي الحلبي .
- ٢٢ - السيد الشريف الجرجاني / التعريفات للجرجاني طبعة / مصطفى الحلبي ١٩٤٨ .
- ٢٣ - السيوطى / جلال الدين بن عبد الرحمن بن بكر السيوطى / كتاب الحاوى / دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٩٤٥ .
- ٢٤ - السيوطى / جلال الدين السيوطى صون المنطق ، دار الكتب العلمية .
- ٢٥ - الشاطبى / الموافقات / دار المعرفة للطباعة والنشر طبعة سنة ١٩٧٥.
- ٢٦ - الشهرستانى / الملل والنحل / دار التراث العربى .
- ٢٧ - الطبرى / أبو جعفر بن جرير الطبرى/ تفسير الطبرى ، دار الفكر العربى.
- ٢٨ - الطحاوى / أبى جعفر الطحاوى / شرح العقيدة الطحاوية / طبعة المكتب الإسلامى .
- ٢٩ - الغزالى / محمد بن محمد / روضة الطالبين وعمدة السالكين / مكتبة الجندي القاهرة ١٩٧٢ .

- ٣٠ - القاسم الرسى وآخرون / رسائل التوحيد دراسة وتحقيق محمد عمارة دار الشروق .
- ٣١ - القاضي عبد الجبار / المغنى فى أبواب التوحيد والعدل طبعة المؤسسة المصرية العامة القاهرة ١٩٦٢ .
- ٣٢ - القرطبي / تفسير الإمام القرطبي / دار الكتاب اللبناني .
- ٣٣ - حافظ آل حكى / أعلام السنة المشهورة .
- ٣٤ - حافظ آل حكى / ٢٠٠ سؤال فى العقيدة الإسلامية .
- ٣٥ - حافظ بن أحمد آل حكى / معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول فى التوحيد / دار الفتح الإسلامى .
- ٣٦ - حسن أيوب / تبسيط العقائد الإسلامية / دار التراث العربى للطباعة والنشر .
- ٣٧ - خالد محمد خالد / رجال حول الرسول / مطبعة دار الريان لإحياء التراث .
- ٣٩ - سعد الدين التفتازانى / المقاصد مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٨٩ .
- ٤٠ - سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب / تيسير العزيز الحميد / ط المكتب الإسلامى ص ١٣٩ .
- ٤١ - شمس الدين الأصفهاني / شرح مطالع الأنظار على طوابع الأنوار / سنة ١٣٣٣ هجرية .
- ٤٢ - شمس الدين بن قيم الجوزية / المعارف السنية ١٣٩١ هجرية .
- ٤٣ - صالح الجعفرى الصادقى الحسينى / فتح وفيض من الله .
- ٤٤ - عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ / فتح المجيد شرح كتاب التوحيد / دار الفتح للطباعة والنشر .

- ٤٥ - عبد السلام المالكي / حاشية محمد بن محمد الأمير لجوهرة التوحيد / مطبعة اللقاني مصطفى الحلبي .
- ٤٦ - عبد القاهر البغدادي / الفرق بين الفرق / طبعة دار الآفاق الجديدة بيروت .
- ٤٧ - عبد الله الشرقاوي / شرح الهدى على السنوسية مصر ١٣١١ هجرية .
- ٤٨ - عبد الله بن حسن آل الشيخ / شرح العقيدة السلفية للفرقة الناجية .
- ٤٩ - عضد الدين الإيجي / المواقف طبعة لبنان .
- ٥٠ - فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر / مفاتيح الغيب / المطبعة الخيرية القاهرة ١٣٠٧ هجرية .
- ٥١ - محمد بن عبد الوهاب / الأصول الثلاثة .
- ٥٢ - محمد بن عبد الوهاب / حاشية الأصول الثلاثة / شرح عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي / مطبعة المكتب الإسلامي .
- ٥٣ - محمد حسين هيكل / حياة محمد / دار المعارف .
- ٥٤ - محمد عماره / أعلام الموقعين / طبعة دار الشروق .
- ٥٥ - محمد فريد وجدي / المصحف المفسر / ط الشعب .
- ٥٦ - محمد قطب / واقعنا المعاصر / المكتبة السلفية .
- ٥٧ - محمود محمد مزروعة / بحث في كلية أصول الدين سنة ١٩٨٧ .
- ٥٨ - الإمام مسلم / صحيح مسلم / ط دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٧	الجوهرة الأولى : أصل الشهادتين من الإسلام والإيمان
١٣	الجوهرة الثانية : أدلة شهادة لا إله إلا الله في الدين الإسلامي
١٩	الدليل العقلي على الوحدانية
٢٣	الجوهرة الثالثة : أدلة شهادة أن محمداً رسول الله
٢٧	الجوهرة الرابعة : الشهادتان من القرآن الكريم
٣١	الجوهرة الخامسة : الشهادتان من السنة المطهرة
٣٧	الجوهرة السادسة : أركان شهادة ((لا إله إلا الله)) ومعناها
٣٨	روح هذه الكلمة وسرها
٤٩	الجوهرة السابعة : شروط شهادة : أن لا إله إلا الله
٥٧	الجوهرة الثامنة : العلم بشهادة ((لا إله إلا الله)) طبقاً لقوله تعالى فاعلم أنه لا إله إلا الله
٧١	التحقيق لمعنى المعرفة
٩٣	الجوهرة التاسعة : فضل شهادة ((أن لا إله إلا الله))
١١	الجوهرة العاشرة : باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله
١٠٩	الجوهرة الحادية عشر : شهادة أن محمداً رسول الله وهل تقبل الشهادة الأولى بدونها؟
١١٥	الجوهرة الثانية عشرة : حكم النطق بالشهادتين
١٢١	الجوهرة الثالثة عشرة : تحقيق معنى الشهادتين

١٢٧	وجوب العلم بالتوحيد
١٣٥	الجوهرة الخامسة عشرة : أقسام التوحيد
١٥١	شبهة النسخ والرد عليها
١٥٦	ثالثا : تفصيل توحيد الأسماء والصفات
١٦٧	الجوهرة السادسة عشرة : دلالات ألفاظ التوحيد بين المتكلمين
	والسلف الصالح
١٨٤	أهم النتائج
١٩٤	قائمة المراجع